الأبنوسة البيضاء

حنا مينه

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق ١٩٧٦

HAMDAN.B
7/11/2009

هذه عشر من قصصي القصيرة تنشر لاول مرة ·

ويرجع تاريخها كلها الى ما بعد عام ١٩٦٩ ، باستثناء قصتين : « النــار » التي كتبت عام ١٩٤٩ ، ونشرت لاول مرة في جريدة « التلغراف » اللبنانية ، و « جمرة السنديان » التي كتبت عام ١٩٥٦ ونشرت في العام نفسه ، ثم أعيد نشرها في لبنان ومصر ، وأنا أثبتهما لانهما بمثابة عينة من قصصي الاولى ، وقصص الخمسينات من هذا القرن ·

لقد بدأت حياتي الادبية بكتابة القصة القصيرة عام ١٩٤٥ ، ونشرت أقاصيصي في صحف ومجلات سورية ولبنان ، ولكنني لم أجمعها ولن أجمعها ، وبعضها ضاع وأنا ، كما قلت في مناسبات عديدة ، غير آسف عليها ·

انه ايضاح بسيط ، لكنني وجدته ضروريا ·

حنــا

الأبنوسة البيضاء

ثلاثة في سيارة : مهندس ومدرّسة ورسّام • والسيارة تمضي في طريق صلي(١) ينساب بين حقول الزيتون والبرتقال • قال الرسام : كل هذه الحقول كانت لأسرة واحدة • هذه ضيعة جبرو • اذا قلت جبرو قلت سعادة • الناس يفهمون فورا • كانت المنطقة مقسمة الى ضيعات ، والأسرة التي تملك ضيعة أو اثنتين تأتي في الصف الثاني • الصف الاول يملك ثلاثاً فما فوق • كان الزيتون كل شيء • دالت دولته • الحمضيات الآن • يقلعون الزيتون ويزرعون البرتقال • يزرعون التفاح أيضا • وقال في نفسه : « سيزان رسم تفاحات وبرتقالات طبيعة صامتة ••• أنا لا أحب الطبيعة الصامتة • فشلتُ في رسم حركة النوارس وهي تصئي مذعورة • ولكني لا أريدها صامتة ، جالسة على منكب الموج » •• الزيتونة شجرة مباركة •

---

(١) نسبة الى الصل ، وهو الافعى السوداء الطويلة •

هذا في الكتب • في الاقتصاد الحمضيات تدر أكثر • البرتقال والليمون واليوسفي ينمو على الشاطىء • الزراعة علم • حين نتعلم أصول الزراعة سنبدل الاصناف كما بدلنا الزيتون بالبرتقال • البطاطا تهاجر ، يمكن أن تزرع في الداخل ، أما على الرمال فالافضل أن نزرع الفستق(١) •• وعاد يقول في نفسه : « عنقها أبيض ، والشعر ، على الكتفين ، مروحة حريرية من خيوط • ذيل فرس مفروش • منشة في يد محمد علي الكبير •• سأرسم الشعر وهو يتطاير مع النسيم •• على الصخور ركزت على الوجه • لم أنجح •• رسم الوجوه فن بذاته • في شوارع روما يعطيك رسام من الدرجة الثالثة « بورتري » بخمس دقائق ••• أنا انطباعي ولهذا لم أعن بالاشخاص » ••• نعم يا سيدي ! الفستق •• يزرعون الآن الفستق • وهذه الحقول • « حسنا •• أنا أكلم نفسي •• يكفي •• ماذا لو نمت في مقعدي الخلفي طالما أنه فارغ ، وان آحدا لا يصغي الى شروحي ؟ » •

أقعى الفنان في زاوية المقعد وخرج من السيارة • كان يحس أنه ليس بداخلها ، والآن خرج نهائيا • ذهب مع أفكاره وبقي جسده مركوناً يتهزهز •

---

(١) الفول السوداني •

تمددت السيدة في جلسة استرخاء · رفعت يدها فجمعت الشعر المتناثر وحطته على مسند المقعد · تطلع المهندس في المرآة ليرى ما اذا كان الفنان قد نام ، ثم استأنف النظر عبر الزجاج · ران الصمت · ظل محرك السيارة وحده يتكلم · كانت السيدة جميلة كايفا التي عض كتفها فتى بلزاك · قال الفنان في نفسه : « من الخير أن كتفها ليست عارية » · وقال المهندس : « لو عكست المرآة ما على المقعد لرأيت ركبتيها » ·

السيدة اكتفت بأن شمرت الفستان عن ركبتيها · قوية الشخصية ، متحدية وعصية · والمهندس صموت · تعليقه كلمة ، وسؤاله كلمتان · أليف الى الحد الذي تسمح ليدك أن تربت على كتفه ، ونفور حتى لتتوقع أن يقول لك في كل لحظة : « لنفترق من هنا ! » ·

راح الفنان يرنو الى الاثنين ويقارن بين تشكيل مؤخرة الجمجمتين · أحس بالضجر ، ندم لأنه جاء · كان يرسم على الصخور · وقفت السيارة وترجل منها المهندس والسيدة · تقدما منه ونظرا في لوحته · توقف عن الرسم ومسح السيدة بنظرة · ضبطته فابتسمت :

ـ هل ترسمني ؟

ـ لا أرفض ·

ـ أعطيك نصف ساعة، وأنا في هذا الوضع، على الصخر ··

ـ سأجرب ···

قال المهندس :

ـ ارسم لها صورة تجريدية ، تنته بأقل من ذلك !

ـ ولكن التجريد ··

قاطعه :

ـ لست ضد التجريد ·· أنا من أنصار عفوية الفن ·· يكفي أن تصنع التكوين الآن · هيا ··

ـ لا تأبه لما يقول (صاحت السيدة) هل وقفتي ملائمة ؟

ـ انحرفي قليلا ··· هكذا ··· نعم ، هكذا ··· ظلي ثابتة دقائق ··

غادرهما المهندس ، وراح يثب على الصخور مبتعدا · كان البحر عند جذورها ، يثير هديرا مكتوما ، وأمواجه تلق على حوافيها · تناول حجرا قذفه في الماء ، وبحث عن آخر فلم يجد · وضع يديه وراء ظهره وطفق يفكر « بنايـة هنا ·· على عضادات ·· فندق بعشرة طوابق ·· مشرع للشمس والريح

•• ولك الحرية الكاملة في أن تتلاعب برسمه كما تريد •• نوافذ •• أبواب •• شرفات • غرفة نوم بحمام ، وامرأة ، وضوء قمر •• نعم ! غرفة نوم وامرأة وضوء قمر ، وهذا المدى الازرق المترامي •• » •

رنت ضحكة وراءه • هي التي تضحك • ضحكتها فضية كرشقة أنامل على أوتار معدنية ••

سأل المهندس :

ــ أين صرنا ؟

ــ حيث كنا ••

وقال الفنان :

ــ فشلنا يا سيدي •• خذلني الشيطان ••

ــ الذي أمامك ؟

ــ لا •• الذي في دماغي ••

قالت السيدة :

ــ تسميني شيطاناً ؟

وقال المهندس :

ـ أستعمل التسمية الفنية ..

وقال الفنان :

ـ سيدتي ملاك ، لكنني لم أعتد رسم الملائكة .. آسف .. يدي متصلبة .. بعض الوجوه عصيّ على الرسم ... ووجهها ..

لم تسمعه .. وثبت عن الصخر دون أن تلتفت اليه . حسبها ذاهبة الى المهندس ، فاستدارت واتجهت الى صخرة أخرى .. تصرفت وكأنها وحيدة . لا المهندس ولا الرسام موجودان . كلاهما فشل في أن يكون ، وبدت كأنها تبحث عن كائن من رسمها ، من نسجها ، من صنع جموحها .

ـ لنذهب اذن !

اقترح المهندس .

ـ الى أين ؟

سألت السيدة .

ـ الى الجبل .. الى الغابات .. من أين الطريق الى كسب ؟

وجه الكلام الى الفنان ..

ـ من هنا ·· (أشار بيده) اذهبا الى «الفرلق» و«البسيط» واستريحا في « الجبل الاخضر » ·

ـ وماذا لو تأتي معنا ؟ قالت السيدة ·

عتاب ؟ استثارة ؟ وقال المهندس لامبالياً :

ـ نعم تعال معنا ·· يجب أن تأتي معنا ·· هناك سيكون لديك الوقت الكافي للرسم ·· وستكون دليلنا ، قصدت رفيق رحلتنا ، فما رأيك ؟

لملم الرسام سيبته وأصباغه وفراشيه · وضع الكل في صندوق السيارة وصعد الى مقعدها الخلفي مستسلماً الى رغبة مبهمة · « مهمة الدليل أن يتكلم » قال في نفسه ، وراح يتكلم : زيتون ، حمضيات ، بطاطا ، فستق ، ودفيئات الخضر المبكرة · « المرحلة الزرقاء عند بيكاسو · التكعيبية وفتيات آفنيون · السيدة ذات القبعة لرنوار · ما رأيك في هرم خوفو يا سيدي ؟ يقولون ان ارتفاعه وقاعدته متوازيان ، منطبقان على أحدث نظريات البناء ! ستي لم تعرف « الروج » والدتي رأت جارتنا تستعمل طربوش زوجها · بللته ودعكت به وجهها · لم نصدق الخبر · طربوش الوالد أيضا اختفى · Alagarçon . أين سمعت هذه الكلمة ؟ كنت صغيرا · قيل ان والدها ضربها حتى الموت

•• صارت قصة في الحي • زمان ! الفورد كان برفراف •• هذا مفرق فطّيرو •• سمعت بفطيرو يا سيدتي ؟ لا ، لن تخسري شيئا ، وأنا لم أسمع بصالون « تي هاي » لحلاقة السيدات •• وأنت يا سيدي ! هل قرأت قصيدة « القول القاطع في وطء ذات البراقع » للسيوطي ؟ أكيد لا •• أنا قرأتها •• نسخها رجل في الستين تزوج ابنة عشرين • مخطوطتها محفوظة في اكسفورد • مكتوب عليها بالكوفي : هذه القصيدة للشيخ جلال الدين السيوطي ، العالم الجليل واللغوي النحرير ، غفر الله له ، ونفعنا ببركته ، آمين » ••

لم يبادلاه الحديث •• لو فعلا لتبرر وجوده • حسنا ! هو أيضا لن يتحدث • تطاول على المقعد وشبك رجليه • ليكن صمت • هو يميل اليه • ولكم تمنى في لياليه ، عبر الظلمة والسكون ، أن ينظم سهرات صامتة : يلبس طرطوراً طويلا ، يتحزم على عباءة فيجلس متربعا وأمامه نار يتصاعد منها بخور • الناس من حواليه صامتون ، والحديث بلا كلام • اهترأ الكلام ، أصبح ضروريا أن يقام أسبوع للصمت ، كما يقام أسبوع للنظافة • يسكت اللسان ، يتنظف ، تتطهر النفس ، وينظر الانسان الى داخله •

عاد المهندس ينظر في المرآة : « لماذا يشيدون الابنية في

مدينتنا على الرمل ؟ انها تنظر الى ·· ستكون لي بغير شك · المتر المربع في أبي رمانة ·· لا ؟ القصبة أرخص في الزبلطاني» · وتململت السيدة : « يضع صابونا على البلاط ·· حسنا ! سأجعله يركع على أربع ·· سألت الطلاب : ما هدفكم من الدراسة ؟ أجابوا : بناء المستقبل ! واحد بينهم قال : الحصول على الشهادة لكي أتوظف ! كان الصادق الوحيد بينهم ··· الرجال دائما هكذا ··· بلداء ! » ·

ومضت السيارة تنساب أيضا ···

كانوا داخلها وخارجها معا · يخرجون ، يدخلون ، وهي تمضي · يتكلمون ، صامتين وهي تمضي · ثلاثة أفواه صامتة ، وثلاثة قلوب متكلمة ··· وقال الرسام في نفسه : « حسنا ! هذا جيد ، نحن مع الطبيعة اذن » تساءل : « حين تسكت الأفواه ماذا تقول القلوب ؟ » تساءل أيضا : « لو سكتت أفواه المليون ، في المدينة الكبيرة ، وأفواه الملايين في المدن الصغيرة ، وتكلمت قلوبهم وحدها ، فما عساها أن تقول ؟ » تساءل كرة أخرى : « لو عرفنا ما تقوله القلوب المتكلمة ، أية أسرار وفضائح كنا نثير ؟ » ·

اطرّح خواطره ·· من هنا رأس شمرا يا سيدتي · آثار

ماري . هل أنت من هواة الآثار ؟ أنا لا أعرف لماذا أسموها مملكة ماري ، ربما لانها فعلت ما عجز عنه الرجال .. نحن مدينون في تقدمنا الى المرأة ...

قال المهندس :

ـ خطأ ..

قالت السيدة :

ـ صح ...

قال المهندس :

ـ المجتمع لا يتقدم على ساق واحدة ..

قال الرسام :

ـ الساق الجريئة .

استحسنت السيدة :

ـ هذه هي .. الساق الجريئة .

تمنطق المهندس :

ـ برهانك ؟

ــ أنديرا غاندي ..

ــ هذه ظاهرة شاذة .

صاحت السيدة :

ــ ولتكن ... تحرموننا حتى من شذوذ الظاهرة .

وقال المهندس بحسم :

ــ فكري بذلك أنت ..

سكت .. راح يتابع الطريق ، والسيدة تنظر اليه ، تحتويه بنظراتها ، متجاهلة « الآخر » في المقعد الخلفي . والآخر يتابع المشهد ويفكر لنفسه « قريبة منه وبعيدة عنه . من بعيد جاءت معه ، وبقربه تحافظ على المسافة ولا تذهب اليه . مقعدان في سيارة ، وعلى المقعدين رجـل وامرأة ، وكل منهما ، في العلاقة المتبادلة ، يعتمد التوازن الذي يحفظ الكبرياء ! لمن تكون الغلبة ؟ سليمان نـادى ، وبلقيس ظلت في العصاة ، وبلقيس نادت ، وسليمان ظل في الملوك ! تراسلا ، تسافرا ، تبادلا الهدايا ، واجتمعا ، وظلت المسافة بينهما قائمة . الحب يحكمه العقل . سيدي ! سيدتي ! لا فائدة في حب يحكمه العقل ، لعبة سليمان وبلقيس لعبة ملكين لا قلبين ! . » .

خيل اليه ، أنه هو أيضا ، وبأسلوب ذكي ، جر الى اللعبة الملكية • آراداه لحفظ التوازن • علامة فصل تحول دون تحرك ساكنين • جاءا به من قبيل الاحتياط • صمام أمان في آلة العاطفة ، وربما في حضن الطبيعة ندما • في هذه الحال يحسن به أن يلقي بنفسه من السيارة •

بدلت السيدة جلستها • انشمر الفستان أكثر • استمرت في تجاهلها واصرارها على اخراج رفيقها عن هدوئه المصنوع • حلت زر قميصها فبان جذرا النهدين الحليبيين • حُقان من البلور على قمة كل منهما شامة وردية •

قال الرسام في نفسه : « هي ذي بلقيسك يا سليمان ! » غير أن سليمان لم يترك صولجان الملك • كان من الوثوق بحيث لم تخطر له لعبة ابريق الماء • هو يعرف نفسه ، ويعرف أن بلقيس ستكون له • جاءت دون هدهد ، وأقامت في القصر الذي أخشابه من أرز لبنان • ستأتي الى جناحه ذات فجر •

تأتي وتقرع الباب • كيف تتصورها تأتي يا سيدي ؟ أنت تعرف السرو والشربين ، تعرف الأبنوس الاسود والاحمر ، لكنك لم تر أبنوساً أبيض • لا تغمض عينيك فالطريق كثير المنعطفات • شجيرة الأبنوس الابيض ، الفضية ، الريانة ،

القارعة ، الممددة على سريرهـا العنبري ، في الجناح اللائق بملكة الشجر ، ترتعش بفعل أنفاسك النافذة خلل الجدران • الغصن يتحول الى ذراع ، والتـاج المورق الى رأس وشعر ، والجذع الى جسم ، ونحات لم يحلم ، وحائك لم يحلم • مملكة سبأ أعطت أعجوبتها • دخلت في منافسة مع مملكة سليمان ' بلقيس تنهض من سريرها العنبري — تسوي غلالتها وتتقدم باتجاه الجناح السليماني •• والسيـارة تمضي ، والرسام يتابع المشهد •

شيئا فشيئا ، وكلما أوغلوا في الطريق ، امتصت الطبيعة وقارهم المصطنع •

الأفاعي تبدل جلودها أيضا • بدل الثلاثة جلودهم • عاد الرسام الى الكلام •

المهندس ابتسم لنكتة عابرة • السيدة اكتشفت أن رسامها الفاشل ليس جدياً الى الدرجة التي تضايق • طفقت ابتسامتها تعطي خبزها بسخاء • السيارة صارت على مشارف الغابات • هي كثيفة أكثر الى أمام • ها هو عطرها يهل ، والبحر ، ثمة ، الى يسار ، لا يرى ولكن يشم ، والشمس ، والريح ، وزرقة السماء •

« اليوم هو الاحد ٠

وفي هذا اليوم آخرجوني لأول مرة الى الشمس

ولأول مرة في عمري ذهلت ،

من بعد السماء عني بهذا القدر

وسعتها الى هذا الحد

وزرقتها بهذا المقدار

فوقفت دون حراك

ثم جلست باحتراس على الارض

وأسندت ظهري الى الجدار ٠

الآن لا تفكير بالهموم ،

ولا بالمرأة أو الحرية

الارض ، والشمس ، وأنا ٠٠٠

واني لسعيد[1] ٠ »

---

(١) من قصيدة لناظم حكمت ٠

درجت السيارة صعودا حتى بلغت أعلى منحدر على جانبه الايسر لوحة تشير الى ابتداء الغابات • هتفت السيدة : « تمهل في سيرك ، أحب الغابات » • قال المهندس : « في هذا نتفق » • صفق الدليل « جميل! الى الفرلق اذن! هناك الغابات الحقيقية • الاشجار غار ، والهواء عطر ، والطراوة مروحة من الجنة » • قالت السيدة :

ـ لا أحب الجنة ، امضوا بنا الى البحر •

قال المهندس :

ـ الى البحر !

وصاح الدليل :

ـ ما أروع الفكرة !

تركوا ، الآن ، أنفسهم على سجيتها • نسوا المدن وأبنيتها ومدارسها • نسوا الزيتون والحمضيات والفستق وهجرة البطاطا •

أحسوا أنهم غير ما كانوا • خفوا ، شفوا ، تخلصوا من ذكرياتهم الكئيبة ، وجداول الدوام ودقات الساعة الثامنة •

شعر السيدة تبعثر مع الريح • استسلمت لعبث الريح ،

سمحت لها أن تقبلها • انتشت الريح فانثنت الى الغابة • هزت أكواز الصنوبر فتساقط مرجان أبيض • خفقت الاغصان فانهرت الابر الشوكية • صارت بساطا للملكة • ومن الجذوع نث صمغ وفاح • ومجموعات لا عد لها من راقصات مسرح الهواء الطلق ، السراوات ، الكواشف ، تقدمن في صفوف صنوبرية ، متحابة متشابكة ، متعاقدة الأذرع ، لتصنع مظلة من خضرتها للملكة •

سأل الدليل فجاءة :

ــ هل سمعت نداء الغابة يا سيدتي ؟

نظر المهندس في المرآة ، ليطمئن الى سلامة الدليل الذي نُسي على المقعد الخلفي •

ــ في قلب السكون ، كما في ساعة التجلي ، يتعالى صوت •• همس مبحوح ، كما على وسادة عاشقين • الغابة ترحب ، أشجارها تتوشوش •

التفتت السيدة في نظرة متفرسة • « كاتب أم رسام ؟ » بلقيس استشعرت برودة الرخام في قصر سليمان • ملك هو ، ملك الملوك ، ولكنه رب الحكمة • لماذا الحكمة ، ودائما الحكمة !؟

اقترح الدليل :

ـ لنفتح نوافذ السيارة .

أضاف : في البرية تخرج الفراشات من شرانقها ، وفي الغابة ينزع الناس أقنعتهم ، وأمام البحر يرجعون أطفالا . يدعونه يغسلهم ، يتعمدون كما في الاردن ..

ـ الاردن ! هتفت السيدة .

ـ أردننا يا سيدتي .. نهرنا المبارك .

هز المهندس برأسه . ما أوجع الذكرى ! ورددت السيدة كمن يهمس باسم حبيب :

ـ أردننا ! آه .. أردننا !!

قال الدليل :

ـ هو ذاك .. لنا .. ميراثنا .. نهرنا ..

وخيم صمت ، قطعه شحرور يغرد على شجرة . والريح تجرأت . فكت المنديل عن العنق الابيض . هرعت لتقدم خدمة للجالس في المقعد الخلفي . لكن اللعبة استثارتها . كقطة خمشت المنديل وجرته . انكشف العنق وصار المنديل يرفرف .

غار سليمان • زجرها • أغلق النافذة ، فانثنت الريح ، نشوى ، الى الغابة ، وترنمت ، بين غصونها ، بصفير شبَّابة •

فكر الدليل : « ماذا لو نزلت السيدة وسارت حافية على البساط الشوكي من ابر الغابة ؟ تخشى أن تخزها ؟ فلتفعل ! يتنفس الجسم ، ينقى الدم ، تتجدد الحياة •

هنا ليس من أخصائي بعلم النفس التحليلي • العقد تنحل لذاتها ، تخرج لتدخل في قطيع الخنازير ، تغادرنا عائدة الى آقبية المدينة ، حيث ترتع في الرطوبة والعفن » •

فكر أيضا : « الغابة تنادي ونحن نتجاهل ، الريح ، كرسول آمين ، تذهب وتجيء ونحن نتجاهل • نخاف على شيء ما : أحذيتنا . ثيابنا ، وقارنا ، لا أدري • سيارتنا تنساب على الشريط الاسفلتي اللاحب • علبة كبريت على الشريط اللاحب ، وثلاثة عيدان في علبة كبريت • فارهة ولكنها علبة • والغابة عالم من الخضرة والصمت والاسرار ••• ألا يحركك النداء يا سيدتي ؟ وأنت يا سيدي ، أي طابق تبني الآن ؟ دليلكما لا يملك سيارة • لشد ما تمنى لحظة ألا تكون سيارة . آن تتعطل ! لو كان وحده فيها ، لربما أتى بما يسمح لكما أن تشهدا ضده ليساق الى المستشفى الذي لا يدخله العقلاء ولا

عيدان الكبريت • قد كان يصعد بسيارته الى مرتفع ، ويفتح كوابحها ، ويدعها ، على اسم الجنون ، تهوي هدية غير معلبة ، الى عالم يضيق بجميع أنواع المعلبات ، ويرتجف رعبا منها • يرسلها الى الجحيم ، وينطلق بكل ما فيه من قوة التلبية ، الى الغابة التي في أعماقها المجهول • ينحدر ، كأتي[1] المتنبي ، الى الوادي الاخضر ، يدور بالاشجار ، ويقفز فوق الادغال ، يتدحرج على العشب ، ويتمرغ به ، كحيوان أطلق بعد طول رباط ، ويفعل ما يخطر وما لا يخطر على بال ، حتى تستنفد الفرحة فيض الطاقة ، ويعود ، وقد أعياه اللعب والركض ، فيستلقي في أقرب غار ، تحت أول فيء ، سعيدا بانفلاته ، بتشرده ، بجنونه ، مستشعرا القدرة على ضم الحبيب ، لو كان ، حتى تتأوه عظام وتتهرأ شفاه •

« ولأن دليلكما ليس وحيدا ، ولا يرضى أن يدعكما ويفر ، فماذا لو صنعتما له بهجة ؟ دعا السيارة ، هنا ، على الطريق • رافقاني في رحلة ننزع بها قشور قلوبنا ونلقي بها الى النار • هيا ! اتبعاني •• سأمضي بكما في تطواف لا ينتهي ، عبر غابة لا تنتهي . نخطيء ؛ نضل الطريق . ندور على محاورنا ، نتلمس الشمس من فرجة بين الاشجار . لا نجد الشمس ،

(1) السيل الشديد •

لا نميز الجهات الاربع ، نضيع .. تقف شعورنا ونحن أمام حبال الزينة للافاعي المتدلية .. يهاجمنا الليل . نخاف . نهتز من الخوف ، نموت منه اذ نسمع عواء ذئب أو زئير أسد . هذا ما أريده . الخطر ! أن نواجه الخطر . الموت ! أن نصل الى حافته ، ثم نعود الى الحياة . آه يا سيدتي .. هل كنت يوما على حافة الموت وعدت الى الحياة ؟ لو حدث لك هذا مرة ، لاشتقت أبدا اليه . وأنت يا سيدي ! وصلت الى الطابق الخامس ؟ لازلت ممسكا بعصا سليمان ؟ زعموا أن سليمان خشي تمرد مخلوقات الارض وجنها من بعده ، فمات وظل متكئا على عصاه . لم يدخل عليه أحد . رأوه وهابوه ، حسبوه في الأحياء وهو في الاموات . « علو في الحياة وفي الممات .. لعمري تلك احدى المعجزات ؟ » والمعجزة تبطل معجزة . نفي النفي اثبات . مجد سليمان ليس أكبر من مجد حشرة الأرضة(١) . دبت الى العصا ونخرتها .. تهاوت العصا وتهاوى الجثمان . مات سليمان ، ونحن كذلك سنموت . يبقى ماعملنا ، من سليمان مزاميره ... نشيد انشاده .. هيكله ، ولكنهم دنسوا الهيكل ... باعوا فيه واشتروا .. « هذا بيت أبي وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » . طردهم . الذي بارك اللص

---

(١) الأرضة : الدويبة التي تنخر الخشب .

عن يمينه وهو على الصليب . لعن اللصوص الذين جعلوا من الهيكل مغارة . لو عاد مرة أخرى ورأى الهيكل مغارة لطرد اللصوص بالسيف لا بالعصا . كازانتساكي فهم روح العصر ، هل قرأت كازانتساكي يا سيدي ؟ له كتاب اسمه « المسيح يعاد صلبه » ومسيحه ، في القرن العشرين ، يأتي ومعه صفيحة بترول .. حسنا ! كنت أقول .. سليمان ترك عصاه . الأصح تركته .. وأنت اترك هذا المقود قبل أن يتركك ... دع طوابقك ومشاغلك . تابعني في الغابة ، السيدة أكثر استجابة منك لنداء الغابة . عمّ كنت أتحدث ؟ أن نواجه الخطر ؟ نعم ! نمضي عبر دروب غير مطروقة . وفي كل خطوة نكتشف مجهولا . ذقوننا تنبت ، شعرنا يطول ، طعامنا ينفد ، ويكون علينا أن نأكل مما نجد . وعلى حافة نبـع يبرق ماؤه فوق الحصى ، ويسيل غائرا بين الاوراق الجافة ، نجلس ، نقطف زهورا تنبت في الصخور ونشكلها في شعر رفيقتنا ، نرشقها وراء آذاننا ، نقطع الاغصـان ونقيم خيمة لنا ، هي كوخ حارس وقصر سلطان . أمامها نوقد النار ، ووراء الخيمة نغتسل . هناك تتعرى سيدتي . تنتصب الأبنوسة البيضاء فتتهامس لمرآها كل أشجار الدلب والسنديان . نحن لن نرى ، لن نوصوص اليها من شقوق الخيمة وهي عارية . سنقاوم كي لا نفعل . نكتفي

بأن نطبق أجفاننا ونحلم ، واذ تأتينا ضحكتها الفضية ، وصوت انهمار الماء على الجسم ، وتساقطه على الصخر ، نعض على شفاهنا ونظل نحلم ·· وحين تنتهي نذكي لها النار ·· وفي الأمسيات ، على باب الخيمة ، نتسامر ·· نحكي عن الصبية والوحش وملك الجن والغابة ··· سنجد تسليات كثيرة ومسرات كثيرة ··· فقط لو نخرج من علبة الكبريت ، لو ندعها على جانب الطريق ، لو نقذف بها الى الهاوية ونتخلص منها ·· ان شيئا غير عادي سيحدث عندئذ · سنستعيد أنفسنا ، يسترد كياننا وجوده المسلوب ، ونتحرر من القمقم الكبريتي الصغير هذا ! » ·

أشعل سيكارة · قدم واحدة الى السيدة وأخرى الى السيد · تجمع في زاوية ولم يتكلم · زاد عداؤه لعلبة الكبريت · استعاد مشاعر البغضاء لجميع أنواع العلب · مدينته ، تلك ، الكبيرة ، بدت له الآن علبة ضخمة ، مقسمة الى مربعات ومستطيلات ، وهذه مقسمة بدورها الى مربعات ومستطيلات ومثلثات وكل المتقاطعات والمقوسات الهندسية · خيل اليه أن هذه العلبة الضخمة من العتق والصدأ بحيث لا يجدي فيها طلاء · طلاؤها القديم بدا زائفا ، مقرفا ، يؤذي النظر ·· وقد عجب لأهلها ، لسكان مربعاتها ومستطيلاتها العتيقة الفاسدة الهواء · وجد

نفسه يهتف بصوت أصم كمن على صدره كابوس • كان الصوت يصيح : يا أهل مدينتنا العتيقة ، ياسكان المربعات والمستطيلات والمثلثات وجميع علب الكبريت ، اخرجوا من علبكم ، من نواويسكم وجحوركم، اخرجوا، وتعروا، واعرضوا صدوركم ورؤوسكم للشمس • •

« • • ومرة يا سيدتي • • أنت لا تصغين الي" ؟ لا بأس • • " آكلم نفسي • • مرة في مدينتنا القديمة ، وقفت على سطحنا العالي ، على سطح الطابق الخامس من بيتنا العالي ، في حينا الجديد ، وزفرت وشهقت • • كنت مجهدا وأكاد أختنق من اللهاث • فتحت الباب وانطلقت أثب الدرجات صعودا • أحسست أني سردينة عاودتها الحياة ، فشققت علبتها وفرت • ضاقت بالصفيح يسردنها ففرت • وعلى السطح أمام الجهات الاربع والمداخن وعواسج هوائيات التلفزيون ، وقفت أنا السردينة التي فرت من علبتها • خسارة ! لم يكن ثمة بحر ، ولا مياه • الطوفان لم يحدث بعد ، لكنه سيحدث يوما • أنا أثق بذلك ، لان السخام الذي تنشره مداخننا غطى منافذ أبنيتنا • صار لزاما أن يحدث الطوفان ، واني لأسمع دقات المسامير على أخشاب الفلك • وبانتظار ذلك ماذا تفعل السردينة التي فرت من علبتها ولم تجد ماء حواليها ؟ جعلت تتأمل العلب

السردينية الكبيرة ، الضخمة ، الخرساء من حولها • تساءلت : الى متى يطيق السردين علبه الحجرية ؟

« تصور يا سيدي ! يا صانع علب السردين ، ان علبك تفتقت يوما • ذاب لحامها وارتفعت أغطيتها ، ودبت الحياة في أسماكها فنبقت رؤوسها وخرجت من هذه العلب ! تضحك ؟ لا يحدث هذا ؟ وحتى الطوفان لا يحدث ؟ كل شيء سيستمر كما كان ، على نفس النسق والرتابة والدورة العادية ؟ لا •• أنت يا سليمان الحكيم ، تثق بمجد عصاك ، وتحتقر مجد أرضة الارض ، وأنت يا سيدتي تريدين مجد سليمان ، ولأجله تقبعين طائعة في علبة السردين •• أما أنا فقد أكون مجنونا ، وجنوني يصور لي أشياء لا يقرها العقلاء •• تأملي ماذا خيل اليّ وأنا على السطح ! خيل اليّ أن يوما سيأتي ، ترتفع فيه جميع الاسطحة عن البيوت ، وتتعالى رؤوس السكان نابقة من فوهات هذه الاسطحة •• لقد حبسوا أنفسهم فيها بما يكفي •• هم صنعوا السقوف وهم سجنوا أنفسهم فيها •• ألا تُبنى بيوت بدون سقوف يا سيدي المهندس ؟ هذه هي القضية التي تشغلني • أنا سردينة تختنق في علبتها ، فارحمني يا سيدي ، ارحمني ! » •

توقفت علبة الكبريت ذات العجلات النملية عن الانزلاق

على المدرج الاسفلتي .. كانوا تحت أقواس من الصنوبر ، وعلى يمينهم واد في قاعه ساقية . وعلى يسارهم سد صغير لحجز مياه الامطار وتجميعها . خرج المهندس من السيارة ، خرجت السيدة وتبعها الدليل . اتجه كل منهم منفردا نحو المنخفض الغابي الذي فيه السد . بعد قليل تقاربوا ، تواثبوا بين الأدغال ، تضاحكوا لان السيدة خافت من الحشيش وارتدت مجفلة الى وراء . ملخ الرسام لها غصنا وشذبه وصنع منه عصا قدمها اليها . المهندس تعلق بغصن وارتفع بجسمه عليه كأنه على متوازي . ركضت السيدة وراء فراشة ففاتتها .. عيدان الكبريت استحالت الى غصون ، والغصون الى أطفال ، والاطفال لا يعرفون الهموم . هم نسوها .. تراكضوا ، تعمشقوا بالاشجار ، هزوا الصنوبرات ، وعلق المنديل الحريري بدغل . وطارت حساسين أمامهم ، وغربان حومت في الجو . وذاقوا التوت البري .

حين عادوا الى السيارة كان قميص المهندس مفتوحا . ووجه السيدة منورا . أما ذراع الدليل فكانت مخرشة بشوك الديس(١) ... هذا كل ما حدث . ولم يفكروا بما حدث ..

---

(١) الديس : القريز البري .

لا وقت لديهم للتفكير • انطلقت السيارة بسرعة منحدرة من الجبل الى الشاطيء • •

ـ البحر هناك • • صاح المهندس •

وقال الدليل :

ـ انظري يا سيدتي • • • هذا هو البسيط ، على هذا الشاطىء المحصب يمكنك أن تسيري حتى تلامسي الجبل الأقرع • عنده تستطيعين أن تجلسي على الصخر وتغمسي ساقيك في البحر •

قال في نفسه : « منذ متى لم تغمس سيدتي ساقيها في البحر ؟ أنا لن أنظر الى الماء لو فعلت • سيفسد عليّ الحسد صفاء نزهتي • وأنت يا سيدي ! تحب البحر ؟ كم مرة جئت البحر ؟ أنت صياد ماهر • غزالك هذا شهادة صيد • بأية شبكة اصطدته ؟ لتكن شباكك مباركة الى أبد الدهر • انظر هذا المنحنى المائي • في وسعك أن تلقي صنارتك في البحر وتطلق بندقيتك في الغابة ، وبوقت واحد تجلس الى الحافة وتسند ظهرك الى صنوبرة ، بينما يداك تعبث بالزبد » •

وصلوا البسيط • أشار الدليل الى الطريق فمضوا على

الشاطىء الى بيت صغير هناك. كانت الدنيا بداية صيف مبكر . قال الرسام .

ـ هذا مقهى في الصيف ، وفي الشتاء كوخ مهجور .. سنجد فيه ما يؤكل .

بقي المهندس والسيدة في السيارة . أحسا الآن أن دليلهما يعمل بوجدان . أحسا أنه أخرجهما من اللعبة ولم يدخل فيها . أسلماه قيادهما ... انتظرا اشارته ، ومن بعيد راح يشير اليهما :

ـ تعال يا سيدي وساعدني .. هذا المكان مقفر مثل الشاطىء . ارفع هذه الطاولة ، وذاك الكرسي ، وأنت يا سيدتي خذي المكنسة ، سنتدبر أمرنا بعد رفع هذا الركام من الطاولات والكراسي .. وأنت ، يا صاحب المقهى ، كن ساقياً طيباً ، لا تكن بليدا .. اقسم رغيفك ووزع أسماكك .. جرارك لم تفرغ كلها .. ايتنا بتلك الراقدة في الزاوية ، انزع عنها سداد الطين .. الخمرة يا سيدتي ، لا تعتق الا بجرار سدادها طين . أفهم في هذه الشؤون أكثر مما أفهم في الرسم . كان عليّ أن أكون خمّارا لا رساما .. ومن يدري .. قد أصير ذلك يوما ، أصنع مسرات للناس .

جلسوا الى الطاولـة • كل شيء لهم • السمـك والخمر والخبز • الغابة والبحر والمقهى ، الشاطىء والريح والشمس •• بصحة سيدتي • بصحة سيدي • بصحة رسامنا • بصحة البحر والغابة والخمّار •

ــ أنا لن أعود معكم الى المدينة •• هنا سأبقى •

سألاه :

ــ كم يوما ستمكث ؟

افرغ كأسه :

ــ وتسألان ؟ « من ولد في بحر الخزر قبره بحر الخزر » تلك أسطورتهم وأسطورتي •• هنا ، حين يصير لدي أرض ، سأبني مملكتي !

رنت الضحكة الفضية :

ــ بصحة مملكتك اذن !

ــ بصحة اللوحة التي لم تتم •••

ــ تستطيع اتمامها ••

ــ لن أفعل ••

وسألت السيدة :

ــ لماذا !؟

هز الرسام كتفيه ••

قال المهندس :

ــ سيكون مشغولا بمملكته ••

ــ هو ذاك •• أجاب الرسام •

ــ وماذا لو جئت لمساعدتك في البناء ؟

ــ على أن لا تحمل عصا سليمان ••

ــ وما قصة عصا سليمان !؟ سألت السيدة •

ــ هذه من قصص المملكة الجديدة •

وضحكوا ••

هتف الرسام : أيها الساقي ! جرة أخرى ! لم يبق ؟ اذهب الى النبع واملأها •• ثم دع السيدة تضع اصبعها فيها • لا تعجب ، الماء المتحول خمرا أشهى الخمور •• نعم يا سيدتي •• الماء يصير خمرا ، والخمر يصير ماء • حكمة لم يعرفها جالينوس بل الخيّام • الشيء مع شيئه • كميت اللون مع

كميت القد •• يقولون يا سيدي ان عمر الخيام لم يذق الخمرة، نغزل بالماء •• أنت تشك ؟ كما تريد •• بصحة سيدتي التي تبتسم •• فكر : « تكون لمملكتي سيدتها التي تبتسم ؟ » نظر اليها وأسبل جفنيه ، أطبقهما على صورة لن تبرح الشاطىء قط •

قال : اسمعا ! ذات عام ، قبل أن يدركني الهرم ، سأبتاع على هذا الشاطىء قطعة أرض • سأختارها بعناية • بعيدة عن العمران ، قريبة من البحر والغابات ، ناعمة الرمل ، ملساء الحصى ، مفتوحة للرياح ، مكشوفة للشمس والقمر والليل • وعلى هذه الارض سأقيم بناء ، منارة على شاطىء ، تقولان ؟ ربما، انما أنا هو الحارس والمحروس والمرشد والزورق التائه • في الشتاء أجعله محطة يأوي اليها الصيادون والمنبوذون والذين تكسر العواصف قواربهم ، وفي الصيف مسبحاً ، يدخله الذين في قلوبهم توق الى المغامرة • لن أتقاضى أجرا • من كل حكاية في الشتاء ، ومن كل ابتسامة في الصيف • من لا يبتسم من قلبه ، ويغضب منه ، وينزعه من صدره ، عند الحاجة ، ويلقي به في النار ، لن يدخل مملكتي • لا اعتبار الا لهذا •• قد أقبل الرجل وأرفض المرأة ، وقد أقبل الزوجة وأرفض الزوج • كل شيء يتوقف على البقعة البيضاء في الداخل • غايتي أن

أرى الناس سعداء ، غير مملين ، فرحين ، جريئين ، لا يخافون العاصفة، وليس لديهم أكياس يجمعون فيها القشور والأصداف وحطام البيوت • أكره التفاهة ، والاشياء العادية ، والخبث الأفعواني •• واللطف أيضا • لن أقبل لطفاء ! هؤلاء أخشى من أخشاهم • وخارج بنائي سيبقى الذين يهابون قروش البحر وذئا بالبر • قد تأتي القروش والذئاب ، وتهاجم البناء ، وتدخله ، ولكننا سنقاتلها حتى نبيدها أو نخرجها •• أنا لا أضمن كل شيء . كل انسان ، ولكن التجارب هي المحك ، وبعدها يُلقى من على الأسوار من تسلل في ثياب مزوقة •

أما في أوقات الدعة والسلام ، حين لا يكون في البحر نوء ، ولا على اليابسة عاصفة ، فان الخيام ستنتشر على كل أرضي ، وعلى أبوابها ، في الليالي . تعلق قناديل ملونة • في النهار نعمل • الرجال يجلبون الماء والطعام ويصطادون الوعول والحيتان ، والنساء يشاركن الرجال ، ويبعثن النشاط والبهجة ، والاطفال يلعبون على الرمال ، ويثيرون رذاذ الماء على الشاطىء !

أيها الساقي جرة ثالثة •• سيكون للسقاة والمغنين وكل صانعي الفرح مكان عندي • سنسهر في الليالي على لهب النيران • نيراننا لن نوقدها بالحطب الاخضر • سنلقي اليها

باللحاء المتشقق لأشجار الكينا الهرمة ، وبالجذوع اليابسة لكل شجرة ماتت ولا تزال محسوبة في الاحياء • ولن نأتي نساءنا باسم « العجل المقدس » بل باسم الحب المقدس • ومن يأتي حبيبته ليلا عليه أن يكون قد اكتسب الحق في ذلك نهارا ، عند اصطياد الوعول ومطاردة الوحوش •

وفي النهارات ننظم الرحلات الى الجبال والغابات • وفي الليالي ، بعد العمل والصيد والسباحة ، يبدأ الغناء والرقص • يخرج من البحر ، ويأتي من الغابة ، وقد يهبط من الجو انسان مملكتي الاسطوري • يصعد مرتفعا ويلقي نظرة علينا •• عينه النافذة تكشف خفايانا • مع الصدق والصراحة والحب والعمل والشجاعة هو • يباركنا • غنوا ! يهتف بنا ، ارقصوا ، كونوا سعداء وأقوياء ، امرحوا لأنكم خلقتم لهذا • تمتعوا ، كونوا أبنائي وأنا أحبكم •

بعد هذا يبدأ الغناء والرقص • من قلب الكون تتصاعد موسيقى الغناء والرقص • واذ تلتقي الموسيقى وطلوع القمر ، تخفت الموسيقى احتراما للقمر ، وتتثبت جسوم الراقصين والراقصات ، أذرعهم وأرجلهم ، على الوضع الذي كانت عليه • ومع أول شعاع فضي على الماء ، يسمع من الغاب والبحر : عزف قيثارات غير منظورة ، وتستأنف الجسوم ، في حركات

تعبيرية ، رقصها الليلي ، بطيئا أولا ، عنيفا بعد ذلك ، حتى تتعب وتعرق ، وتفرز سمومها وآلامها ، وتضج الجهات الاربع بالفرحة الكبرى •

سكت الدليل • قال المهندس :

ــ مملكة مجنونة اذن ، لا تضم سوى المجانين !

أجاب الدليل :

ــ أنت قلت يا سيدي ، وهذا أفضل • لن يكون فيها حكماء ولا عقلاء ولا تجار « نفوس ميتة »(١) •

استأنف كلامه بعد صمت : « لن نكون بحاجة الى الاطباء لان عالم الشمس والريح والرمل وملح البحر لا أمراض فيه ولا هو بحاجة الى طبابة • قد يأتي أطباء ، ولكن بعد أن يدعوا أدواتهم وعقاقيرهم في المدينة • وقد يأتي مهندسون ، ولكن بدون حسابات طوابق ، ومدرسون ولكن دون تفكير بالساعة الثامنة دراسة وزواجا وجمعا للراتب على الراتب • أما العقلاء فلا •• مصيبتنا ، في هذا الشرق ، أننا جميعا عقلاء ، جميعا حكماء ، بلحى طولها نصف متر ، مثل لحى شيوخ الصين • هي وأنت وأنا ، آباؤنا ، أجدادنا ، أجدادنا الأعلون ، أجدادهم ،

(١) رواية شهيرة لغوغول •

كلنا ، كلهم ، كانوا عقلاء وحكماء ، وبودي أن أقول للحكمة : بعيداً ! هل جننت مرة يا سيدي ؟ لماذا تنظر الي" مستغربا ؟ أنا لا أتهم ، اسأل ولا أتهم .. لا تهمة ولا موعظة في دفاتري ... أبي عن أبي عن أبي ، وأمي عن أمي عن أمي .. نقلا الي" المواعظ وساقا التهم . أعطني السكين يا سيدي . لا تخف، لن يخرج من عروقي دم . ليس فيها سوى المواعظ : (سر الحيط الحيط وقل يا الله السترة) (اتق شر من أحسنت اليه) (القناعة كنز لا يفنى) (الدنيا دار عذاب) (العين لا تقاوم المخرز) (من أخذ أمي ناديته عمي) (الأرض الواطئة تشرب ماءها وماء غيرها) هذا هو دمي . أما عيوني فليس فيها سواد وبياض الا من الخارج . من الداخل تهم وخوف من التهم، اذا تكلمت اتهمت ، واذا صمت اتهمت . اذا نظرت اتهمت ، واذا أغمضت عيني اتهمت ، صارت التهمة أنشوطة . نعقدها حول أعناقنا بدل الربطات ، نمضي وقد شلّنا الخوف . لقد دجنونا يا سيدي ، وليس في نيتي أن أقيم مدجنة أخرى . العقلاء والحكماء واللطفاء وتجار (النفوس الميتة) والخبثاء من كل صنف لن يدخلوا بقعتي هذه .. ليبقوا هناك ، في جنتهم . أنا سأنشىء جهنماً . ففي الشيء ينطفىء الشيء ، وفي جهنم

تنتهي أسطورة جهنم •• أيها الساقي ، جرارك مرة أخرى ، ويا سيدتي اصبعك في الماء كرة أخرى » •

نهض المهندس عن المائدة وسار والسيدة ظلت جالسة • الدليل كف عن الكلام • لا شيء بعد يقال • مملكة « تدمر » بنتها امرأة • زنوبيا كانت امرأة ، وكان ، في عالمها رجل ، ترى كيف يكون رجلها يا سيدتي ؟ تفكرين ؟ أمام البحر لا يفكرون ، مع المدى يكونون . فاذهبي ، أنت أيضا ، هو ذا سليمان خرج ليأمر الريح ، وبلقيس ترنو اليه • لسوف تنهض وتتبعه ، سيذهبان مع الشاطىء المحصب حتى يضعا كفيهما على الجبل الأقرع • وتبقى أنت وحيدا • ما عادا بحاجة اليك • العقلاء لا حاجة بهم الى مجنون • المهمة انتهت . فماذا تريد ؟ كنت مسلياً ، ولكن المهمة انتهت ، ومملكتك أيها المجنون لا تزال خيالا في خيال ، وأمانيك قبض الريح ، وجرار الصيف أتى عليها ظمأ الخريف ، وستظل هنا ، كاللعنة المرذولة ، كالروح الهائمة ، بين الغابة والبحر ، لا في تلك ولا هذا • لست وعلا ولا شبوطا ، بل سردينة متمردة تنتظر الطوفان •• لسوف ترسم الوجه ، والعنق ، والشعر ، ولن تتم أبدا رسم الوجه والعنق والشعر ، ستعجزك الابتسامة ، وفيها كل السر •

انهضي يا سيدتي ! لــك أقول انهضي • مكتوب أن ابن

الانسان يبقى وحده ، ولكن حين يأتي في مجده سيكون معه خلق كثير • وداعا ! قد لا نلتقي ، ولكننا كذلك لن نفترق • في الماء والنار والتراب والهواء ، حيثما كنت أكون ، أما الآن فاذهبي • في قصة سليمان وبلقيس ان الهدهد يخرج من قصر البلّور ليبحث عن الماء ، ليدل عليه قافلة العطاش ، والهدهد يعرف مهمته • بدون أمر سليمان يعرفها • وبغير أمر بلقيس يمضي اليها • واذ يسقط من حالق ، تحت ضربة منقار جارح ، فلن يخلي نسله الجو للكواسر أبدا ••

نهضت بلقيس • شجيرة الأبنوس الابيض ، التي أغصانها فتائل قطن ، وجذعها عاج مورد ، وتاجها ضفائر شمس ، اقتلعت نفسها من تربة عدن • سحابة تتحرك • مكتوب أن نخطف نحن أيضا في السحب ، وعند ذاك نلتقي •

مضت السيدة دون أن تلتفت • كانت تخاف أن تلتفت . والوصايا العشر تهيب بها ألا تلتفت • ومن داخل الكوخ صاح الساقي :

ـ أعجوبة يا سيدي ، أعجوبة ! جراري تفوح ندأ ، وخشبي تحول الى صندل ، وكوخي مضاء ولا قناديل •

أجابه الدليل :

ـ تحدث اذن بما وقع • قل لمن يأتي بعدنا اننا كنا هنا • ايقاظ كالأسماك لا نيام كأهل الكهف • قل ان سليمان و بلقيس ودليلهما في الرحلة جاءوا اليك ، وأكلوا من طعامك ، وشربوا من جرارك ، ثم مضوا ، كل في سبيله •

لملم الساقي أكوابه وانصرف • والدليل خرج واتكأ على الباب • أمامه ، على الشاطىء ، انسانان يسيران • المهندس والسيدة ، وقدامهما الجبل الأقرع ، ووراءها الكوخ ، والبحر عن يسار ، والغابة عن يمين ، وفي الجو طيور ، وسماء زرقاء ، وشمس ، وريح ، ومنديل حريري تعبث به الريح •

توقف المهندس ، كأنما تذكر أن عليه ، ساعة الوداع ، أن يقول شيئا • صاح بصوت نصف شاك نصف متهكم : « ان كنت قادرا على بناء مملكةجديدة فسورها بالاسمنت •• القروش، يا عزيزي ، ظهرت في مياهنا ••• » •

أجاب الدليل ، صانعا من كفيه بوقا •

ولسوف أفعل ذلك يا سيدي • لن أسورها بالاسمنت بل بالرجال ••• في تغريبة بني هلال : ان الزناتي خليفة أقام أسوارا من الاحجار فلم ينتفع بها ، وحين استبيحت مملكته قال لابنته سعدى : « وما سياج الدار الا رجالها » •• أما

القروش التي ظهرت فستختفي ، ستحملها ، كالسفن ، نفس المياه التي جاءت بها .

توقفت السيدة واستدارت .. كان الدليل ، على الباب ، مفتوح القميص ، متطاير الشعر ، يقف متباعد القدمين ، ويداه في خاصرتيه . بدا ، الآن طويلا ، قويا ، متحديا ، كأنه الانسان الاسطوري ، للمملكة التي تحدث عنها .

ابتسمت له . لوحت بيدها . واحتفنت من البحر رشقة زبد ، وأرسلتها باتجاهه ذرات مع الريح ، ومعها هذه الكلمات :

ـ اذكرني ، يا سيدي ، اذا جئت يوما الى مملكتك .

فأجابها بصوت قوي ، تعمد أن يكون قويا ، لتسمعه جيدا ، ليسمعه كل ما فيها كل ما حولها : البحر والغابة والجبل الأقرع :

ـ الحق أقول لك أنك ستكونين فيها ، بل أنت منذ الآن ، والى نهاية الدهر ، كائنة !

١٩٧٠

على الأكياس

الى الصغير العزيز (و٠ع) ،
الذي سألني :
« كيف ، ومتى ، بدأت الكتابة؟ »٠
(ح ٠٠٠)

لم يعد والدي ذلك المساء أيضا ، كان قد ذهب ليبيع المشبّك(١) في قرى اسكندرونة ٠ ورأيته ، في الصباح ، يحمل الطبق النحاسي المليء بأقراص أفعوانية صهباء من الحلوى . فيركزه على رأسه ، فوق الكعكة القماشية ، ويرسم الصليب ، ويطلب رضى الوالديـن ، ويرفع « السيبة » المتصالبة التي تفتح وتطوى ، فيعلقها بكتفه ، ويضع السلة الفارغة في مشجب زنده ، ويمضي مشيعا بدعاء الام الخائفة أبدا من شيء مجهول ، وبدعائنا ، اخواتي الاكبر وأنا الصغير ، في أن يعود وقد باع حلواه ، وحمل الينا الخبز والطعام ٠٠

وجلست والدتي في الضحى ، ترقع ثيابنا وتغني غناء حزينا وتبكي ٠ رأيتهـا من النافذة ، فدخلت ٠ كانت قـد فتحت

(١) الزلابية المبرومة ٠

الصندوق لاخراج بعض الألبسة ، واغتنمت فرصة غيابي فأخرجت فستانا صغيرا لطفلة بنت سنتين ، هي أختي الصغرى التي ماتت منذ وقت قريب ، وجعلت تشمه وتبوسه • كانت تناجيها وكأنها لا تزال في الفستان الذي رأيتها فيه قبل أن تموت ، وسمعتها تقول لها : « يا حبيبتي ، لماذا رحلت بسرعة ؟ لماذا زعلت من أمك ؟ ألا تشتاقين اليها ؟ ألا ترجعين ؟ ولن أراك ، بعد ، أبدا ؟ وهذا الفستان ، وهذه اللعبة (وكانت قد خاطتها لها من قماش) كل ما بقي منك ، اذن ؟ » •

انسللت ، فقبعت وراءها • بكيت أنا أيضا • كنت ، مثلها ، بحاجة الى ذلك ، فسمعت شهقاتي والتفتت اليّ مذعورة • حاولت مسح دموعها ، وابتسمت بتشنج للتمويه عليّ : « يا صغيري ! ـــ قالت ـــ يا ولدي ! لماذا رجعت بسرعة ؟ اذهب والعب مع رفاقك ؟ » وغمرتني وقبّلتني • حضنت رأسي بصدرها • طمرته في عنقها فشممت ، آنذاك ، عطر الامومة من العنق الحار بفعل التوتر والدمع ، وأحسست قطرات على صفحة خدي ، ويدأ تداعب خصلات الشعر الخرنوبي الذي يكلل رأسي ، ثم رفعت وجهي اليها • ونظرت في عيني •• كانتا حمراوين •• لم أكن قادرا على ضبط نفسي ولا أريد ، والدمع ينثال على خدي •• فقالت وهي تخرج نصف قرش من

جيبها : « اذهب واشتر كعكة ٠٠ لا تبك ٠ الرجال لا يبكون » ٠ سألتها : « والنساء ؟ » فقالت : « والنساء أيضا ! ٠٠ وصمت غير مقتنع ٠ فقالت : « النساء ٠٠ أحيانا ! » ٠

عند الظهر جلبت لنا « الفريفيرة » ، وهي نخالة البرغل مع البصل ، وأرسلت شقيقتي فاستعارت قليلا من الزيت من الجيران ٠ وسلقت بيضة ووضعتها أمامي ٠٠ كنا خمسة حول طبق القش : والدتي وشقيقاتي الثلاث وأنا ، أما الشقيقة الرابعة فقد غادرتنا ٠ لم أكن أعرفها ٠٠ ومن الهمس الذي يدور عرفت أن حادثا وقع لها ٠ كانت خادما في أحد البيوت ثم فرت مع رجل وتزوجته ، أحسست أنها خالفت ارادة الاسرة فنفوها وتجنبوا ، في البيت ، ذكرها ٠٠ وكنت ، قبل ذلك ، قد رأيت عربة حنطور تذهب وتجيء على الطريق العام ، قرب حارتنا ، وتوقفت العربة ونزلت منها سيدة سألت الاولاد عن شيء ٠٠ فأشاروا اليّ ، وركضت وحضنتني ، وقبّلتني ، ودسّت في جيبي نقودا ، وأسرعت الى العربة فغابت ، وهرعت الى البيت فقصصت ما جرى على والدتي ، وللحال انطلقت نحو الطريق ٠٠ وانتظرت حيث أشرت لها ، انتظرت طويلا ، لكن العربة لم تظهر ، فعادت كسيفة ٠٠ وأحسب أنها بكت سرا في تلك الليلة ، وأخذت النقود فاشترت بها شموعا وبخورا

•• وعجبت من فعلتها ، فأوضحت لي : « هذه نقود ليست لك ! » فاحتججت : « لكنني لم أسرقهـا ! » فقالت : « هذه صدقة ، ولا أريدك أن تقبـل صدقة من أحد» ، وأوصتني ألا أخبر والدي حتى لا يؤنبني ، ولا أقول ذلك لأحد أيضا •

وهكذا وعيت على شقيقاتي الثلاث فقط • وقد رأيتهن ونحن حـول طبق القش ، ينظرن الى البيضة أمامي برغبـة وحسرة • كن قد تعلمن معاملتي كأخ ذي وضع ممتاز • وكان في وسعي أن آكل البيضة دون حرج ، ولكن شقيقتي الصغرى ، وقد ماتت بعد ذلك بسنوات ، لم تستطع الامتنـاع عن لمس البيضة المقشرة بأصبعها ، وعندئذ تدخلت أمي وقسمت لها جزءا صغيرا منها •

في المساء تسمرت عيوننا على الدرب • ولم تطق الأم صبرا فخرجت من حينا المستنقعي الى الطريق العام •• لم تعد الا بعد هبوط الظلام •• كنت راكعا على الخوان أرقب عودتها مع الوالد من النافذة . فلما رأيتها بمفردها جزعت، وانكمشت وتكورت حيث أنـا . فدخلت البيت وأضاءت فانـوس الغاز الواهن ، وأغلقت البـاب وجلست على الحصـير وشقيقاتي حولها •

كان من عادة الوالد أن يسعل أو يتنحنح اذا عاد • يعرف

آننا ، في الليالي التي يتأخر فيها ، آذان تصغي بكل طاقاتهـا ولهفتها الى ما ينبيء بعودته سالما • وسعلته ربما، بشير وتطمين لقلوبنا الواجفة ، واذ نتأكد منها نتراكض الى الباب ، وكثيرا ما كنا نفرح بعودته ونأسى لمرآه خائبا ، حاملا طبقه النحاسي وحلواه الكاسدة • وفي هذه الحال كنت أكابد هماً صموتاً • كان عذابه ينثال في صدري كذوب رصاص ، كبكاء والدتي على أختي الضائعة والاخرى الميتة ، كدخان فانوسنا الغازي حين تفرقع بلورته وليس لدينا سواها ، كنظرات الاخت الصغيرة الى الأم في الليالي التي ننام فيها بغير طعام •

وقالت والدتي تشجع نفسها : « سيعود مهما تأخر •• في أيام الصيف يقصد القرى البعيدة ، وينتظر حتى يبترد الجو » • فسألتها شقيقتي الكبرى : « ولماذا القرى البعيدة ؟ ألا يخاف ؟ » • فقالت الأم : « لكي ينفـّق المشبك يا بنتي •• القرى القريبة ليس فيها خير •• الفلاحون فقراء مثلنا ، والبائعون لا يصلون الى الجبال •• أبوك وحده يصل الى هناك •• يعرفونه ويقبلون عليه » • فعادت الشقيقة تسأل : ويعود وحده في الليل ؟ وكيف ، في العتمة ، يعرف الطريق ؟ وأنت ، في حكاياتك تقولين : الجبال ملأى بالجن والوحوش والمشلحين(١)؟ » •

---

(١) المشلح : قاطع الطريق •

فانتهرتها ، عندئذ ، بضيق : « اسكتي ، الغائب لا يفوّلون[1] عليه ! » • وساد صمت بلغ فيه التوتر أقصاه ، خيل الي ، أنني أسمع وقع خطى ، فأنصتّ بجماع حواسي • وضعت اذني على ضلفة النافذة ، فأثارت حركتي الانتباه ، لكن وقع الخطى كان وهماً ، فأمسكنا شفاهنا عن الكلام ، ورحلت عيوننا على دروب الجبال ، تتقفى الأثر ، وتتصور الأب الحبيب ، في الوديان تارة ، وفي المرتفعات أخرى ، يتخبط بين الشوك والحجارة ومن حوله الظلام وعواء الذئاب ، حاملا طبقه وسيبته وسلته وحيدا ، تعبا ، مغبرا وخائفا مثلنا •

اقترحت والدتي أن نصلي • معنى هذا أنها يئست من عودته الليلة • كنا نعرف مراسيم هذه الصلاة على اسم الغائب ، ونقبل عليها باندفاع • وفي صف واحد وقفت مع شقيقاتي أمام ايقونة العذراء ، وأمنا وراءنا ، وتلونا : « أبانا الذي في السموات » أولا ، وتلت أمي وشقيقتي الكبرى : « أومن باله واحد » بقدر ما تحفظانها ، وسكتنا نحن ، ثم رددنا مع الأم الأدعيات : « يا رب احفظ والدنا وأرجعه سالما •• يا رب احفظه من كل مكروه ، وأبعد عنه الشر ، واحمه من أولاد الحرام ، ومن كل ما يطير أو يزحف أو يؤذي الناس •• يا رب

(١) التفويل : التشاؤم عند العامة ، بعكس معناها اللغوي •

يسّر له حتى يبيع حمله ٠٠ » ٠ وكانت الأم ، لسبب لا نعرفه ، تقترح ترديد دعاء ما ، ثلاث مرات فنفعل ٠ وعند فروغنا مسحت على رأسي ، وتناولت صورة العــذراء وأدنتها من شفتي ، فقبّلتها من كل روحي ، فيما هي تقول : « يا سيدتي العذراء ! لا تكشفي رأسي أنا الأمــة الفقيرة ، و لاتجعلي هذا الصغير يعيش يتيما ، واحفظينا تحت جناحيك ، وتشفعي لنا عند ابنك الحبيب ، آمين » ٠ وأدارت الايقونات على شقيقاتي ، ثم لثمتها وأعادتها الى مكانها ، وركعت أمامها ففعلنا مثلها ، ونهضت فنزعت غطاءها عن رأسها ايذانا بانتهاء الصلاة، حيث لا يبقى سوى النوم ٠

لكنهــا أعلنت أنها ستحمّص لنا شيئــا من الحمص الذي تحتفظ به في علبة على رف المطبخ ٠ وقد بعث اعلانها النشاط فينا ، فخرجت مع شقيقتي وأحضرت بعض الحطب ، وأشعلت النار وهي توصينا ألا ننام ٠٠ ولأن الحمص كان قاسيا ، من النوع العجوز ، فقد سكبت عليه ، بعد تحميصه ، قليلا من الماء في الصاج ، وغطته لكي يتخمر ، ووزعته علينا ملء حفنتها ، محتفظة بقسم منه للغد ، ولكي لا نستهلك الغاز ، مدت الفراش على الارض ، واقترحت أن نجلس فيها ونأكل الحمص بدون ضوء ، وهكذا مدت يدها الى الفــانوس فأدنته ونفخت عليه

فانطفأ ، وتمتمت دعاء المناسبة : « الضوء انطفأ والعـدو اختفى » ولم نعد نسمع في الظلمة الا قرقضة الحمص تحت الاضراس •• وبعد ذلك تمددنا كلّ في موضعه ، وأقرب ما يكون الى الأم ، ونمنا ونحن على رجاء : أن تقع المعجزة ونسمع خطى الوالد أو سعلته قبل أن يدركنا النعاس •

هذه الليلة ، وقبل أن أغفو ، قررت أن أفعل شيئا لأجل الأم والعائلة ، وفكرت أن أعمل أجيرا في أي مكان • كنت صغيرا ، نحيلا أصفر الوجنتين • ومع أنني أكلت مما سرقه رفقتي أولاد الحي ، الا أنني لم أسرق أبدا • لقد أوصتني أمي ألا أفعـل ، وقالت ان العذراء تعاقبني ان فعلت ، وربمـا كنت لا أملك الجرأة على فعل كهذا ، غير أن أصدقائي الصغار ، الفقراء والمتشردين ، القذرين والملوثين بوحل حينا وأتربته ، كانوا يسرقون بعض الاشياء من الميناء والمستودعات، ويبيعونها ويشترون بها الطعام والحلوى والسكاكر ، ويقدمون لي منها فأقبلها حين أكون جائعا • كنا ، جميعا ، حفاة في الصيف ، بنصف نعـل في الشتاء ، وكان أصدقائي منهـم يحمونني ، ويدفعون عني الأذى وعـدوان الآخرين ، وقد ارتضـوا ، ولا أدري لماذا ، النظر اليّ كولد متفوق بينهم ، ولعل ذلك يعود الى نجاحي في المدرسة ، ومساعدتي اياهم في الدراسة ، وكوني وحيدا وطيبا معهم •

كنت محبوبا من الأخوين فلفاط • كانا شقيين ، سارقين ، قويين وجريئين في المعارك بين أولاد الأحياء ، وكان أصغرهما في صفي ، ذكيا ، وكريما ، يعمل الآن جزارا في بيروت • وهو الذي قاد خلال ذلك الصيف ، الاولاد الى العمل على شاطىء البحر • أعلن فجأة أنه لا يريد أن يسرق بل أن يعمل • وقال انه اتفق مع رئيس عمال في أحد المستودعات على تشغيل من يريد منا ، وزعم أن الشغل بسيط أشبه باللعب! فعلى شواطىء بحر اسكندرونة ، المرفأ الرئيسي لسورية آنذاك ، مستودعات حبوب كثيرة وكبيرة ، ولان البحر بدون ميناء ، والبواخر تقف بعيدا ، فقد وجدت ، ولا أحد يدري من أوجدها ، جسور خشبية (صقالات) ممتدة في البحر ، ترتبط بالمستودعات بخطوط حديدية ، وعلى هذه الخطوط عربات حديدية صغيرة مسطحة ، توضع عليها أكياس الحبوب والبضائع ، ودورنا أن ندفع هذه العربات بأحمالها من المستودعات الى الصقالات وبالعكس •

كان العمال هم الذين يضطلعون بهذه المهمة ، وها هو رجل يقبل بتشغيل الأحداث مكانهم • وذهب الصغار للعمل ، وبعد ساعات هاجمهم بعض الرجال وضربوهم ، فهربوا وتفرقوا ، وعندئذ تجلت موهبة الشقاوة والعناد لدى صديقي ، وصارت

مفخرة حينا وسببا لزعامته • فقد أقنعا بعض الأحداث بمحاجرة العربات وعرقلة سيرها ، والحصى كثيرة على الشاطىء • وهكذا انفتحت معركة قاداها بجدارة وشهادة دم على صدر أحدهما من جرح في الرأس • وقد حسم رئيس العمال الموقف بتصديه للرجال الذين ضربوا عماله الصغار • نشب صراع رهيب ، فوق الرمال المحرقة ، سقط اثرها رجل ، فحمله « اليازرلي » ــ وهذا اسم رئيس العمال ــ على كتفه الى المستودع وألقاه مثل كيس من العدس في الزاوية ، وبعد نقاش تعهد بتشغيلهم في مستودعاته فقبلوا ، وسمحوا للاحداث بالشغل •

هذه القصص كان يرويها لي الذين يعملون ، فاقترحت أن أذهب معهم ، وقبلوا على شرط أن توافق والدتي ، وهذه عارضت ، خوفا على صحتي العليلة ، فخابت رغبتي ، وبقيت عاطلا ، متحسرا ، مستوحشا حتى عودتهم في المساء ، حين يلتئم الشمل ، ويقصون علي ما جرى لهم في نهارهم •

أفقت باكرا •• ومنذ فتحت عيني بحثت عن الوالد فاكتشفت أنه لم يعد تلك الليلة • دخلت المطبخ ، وأفرغت في جيبي بعض الحمص ، وقلت لوالدتي أنا ذاهب لأعمل . وركضت هاربا كي لا أسمع توسلاتها ولا أرى دموعها ••

آدركت الصديقين في البيت ، فأنبأتهما بعزمي • قلت لهما ان والدي لم يعد ، وليس عندنا طعام ، ورجوتهما أن يساعداني •• فقال أصغرهما ، بنفس أريحيته وقدرته على الحسم : « امض معنا ولا تخف ، لن أدعك تتعب •• ضع يدك فقط على حديد العربة ولا تدفع •• سأكون معك » • وبخلافه كان آخوه الأكبر يشك بقبولي في العمل ، بسبب صغري وهزالي ، فتعهد الآخر بالسعي لدى « اليازرلي » أو بارغامه على قبولي • كان يثق بنفسه ثقة مطلقة ، وأغلب الظن أنه ازداد ثقة بعد المحاجرة ، ويعتبرني من « جماعته » ، التي جعل من نفسه رئيسا لها ومسؤولا عنها • وربما ، في مجال الرياسة ، يريد أن يكون نداً لليازرلي ، حتى ولو فتح معركة مشاجرة جديدة •

بلغنا المستودعات مع طلوع الشمس • العمل ، آنذاك ، كان يبدأ مع طلوع الشمس وينتهي بغروبها • كنت خائفا من الرفض ، وفي سري ، طوال الطريق ، ابتهلت الى العذراء • وكلما اقتربنا من المستودعات ازداد ارتباكي وتوجسي ، فلما رأيت « اليارزلي » دقّ قلبي ، وعمق شحوبي •

استقبلنا هـذا بدفعة من الشتائم على الحساب • تهدد الذين لا يعملون أكثر بالطرد ، والمشاغبين بالالقاء في البحر ، ورد على عامل تدخل في الحديث « أنت ، يا ابن الجرو ، ابلع

لسانك والا قطعته .. لا أحد يتدخل ! » . سكت الجميع ..
وصاح هو : « هيَّا الى العمل .. ماذا تنتظرون ؟ » . فانصرف
كل أربعة أولاد الى عربة. والرجال سحبوا الشراشير(١) واتجهوا
الى أكداس الأكياس الخيشية المرتفعة حتى السقف .

كان المستودع ، ويسمونه العنبر ، واسعا جدا . له باب
حديدي سميك ينزاح ، حين يفتح أو يغلق ، على شريط
حديدي في الارض . وكانت أعماق العنبر ذات خلوات
ومنعطفات ، وفي جدرانه الخلفية ، العرضانية نوافذ حديدها
ثخين صدىء ، عشعش عليها العنكبوت ، وعلقت بنسيجه كل
أنواع الهوام والغبار والقش ، فانسدت أو كادت ، فهي لاتفتح
ولا تغلق ، ولعلها كذلك منذ أنشئت ، والنور يرشح منها
شحيحا ، والشمس لا تدخل الا قليلا ، والمغاور الكهفية للعنبر
تبدو معتمة ، لان أكداس الاكياس قد سدت أغلب النوافذ ،
ومن الارض والجدران تفوح رائحة عفونة ملحية خانقة ،
ونتن جرذان ميتة، وشيء كالصنان، في الزوايا . و«اليازرلي»،
حاكم هذه المملكة المغارية والمسيطر على كل العاملين فيها ،
يقف مباعدا ما بين رجليه ، واليــة شرواله الاسود المغبر ،

---

(١) الشرشور حديدة معقوفة ذات مقبض خشبي يغرزها الحمالون في الاكياس لرفعها .

مكورة بين ساقيه الى وراء ، وفي خاصرته « شرشور » رغم أنه لا يحمل الاكياس كباقي الرجال ٠

فرغ من اصدار الاوامر والتفت الى صديقي والي ّ ٠ وجهه النحاسي الغامــق السمرة ، وطربوشه الخمري على وجهــه العريض الجبهــة ، وعيناه الأقــرب الى الجحوظ ، وشفتــاه السميكتان ، بلون العنب الخلاسي ، وقامته الطويلة العريضة ، أخافتني للوهلة الاولى ٠ أطرقت أمامه أنتظر الحكم ٠ وتكلم صديقي قائلا : « جاء ليشتغل معنا ! » ٠ وللفور سمعت صوته الأجش المتهكم : « لم يبق الا هذا الدوري ! » ٠ وفي اللحظة التالية ، كانت يده تمسك بثيابي من عند النقرة ، وترفعني في الفضاء ٠ لم أصرخ لان الرعب عقد لساني ٠ توقعت أن يضرب بي الارض ، لكنه تركني معلقا في يده ، وسار باتجاه الباب فألقاني ، كقط ميت ، خارجا على الرمل ٠ ومن مكانه . صاح بصديقي : « اركض أنت الى الشغل ! » ٠

انتهى ، بالنسبة الي ّ ، كل شيء ٠ سمعت والدتي ، ذات مساء ، تصلي وتعاتب يسوعها : « لماذا اذن ، يا سيدي ، تعاقبنا نحن الخطاة ؟ لماذا تخليت عنا ؟ » ٠ وها هو يتخلى عني ، برغم كل تضرعاتي ٠ وتحت وطأة الألم والقهر والانسحاق ، عاتبته أحاسيسي الطفولية بكلمات أقسى ٠ وثارت أحقادي ، دفعة

واحدة ، على السماء والكون وجسمي الناحل وضعفي ودموع أمي وصلواتها • تولد في ذاتي دبيب غضب جامح على الدنيا ، وبرزت في خيالي ، كبقعة الزيت السريعة الانتشار ، أكوام الحصى ، وتمثلت لي فعلة صديقي التي سمعت بها كأحسن الأفعال وأكثرها نفعا • وشددت قبضتي على وهم حصاة كبيرة أقذف بها وجه اليازرلي فأدميه •

جاءني صوت صديقي جريئا أكثر مما توقعت : « لن أشتغل اذا لم يشتغل هو أيضا » فصاح به مزمجرا : « الى جهنم يا ابن • • • ! » وهجم عليه ، لكن صديقي هرب ، على الرمال ، واستدار اليه وشتمه بنفس طريقته • تصورت أنه سيلحق به الى آخر الدنيا ، ويدوسه برجليه أو يمزقه بأسنانه • وبدون وعي ، وجدت نفسي أولي هاربا ، واقف وراءه على مبعدة كافية • وعلى باب العنبر كان « اليازرلي » يقف ويداه في خصريه : « اذا طالتك يدي ، أو دست هذه المنطقة ، فستحاسب يا ابن • • • » فصاح صديقي ، بلا مبالاة : « واذا أبقيت من يشتغل عندك من الاولاد أكون ابن • • • يا • • • ! » •

أنا لا أذكر كل الشتائم التي تبادلاها بعد ذلك ، كنت ، من هذه الجهة ، واثقا من تفوق صديقي ، فقد حدثني أنه تمرن عليها يوما كاملا • أجلس أخاه في « فاكون » معطل في محطة

القطار ، وجلس في أخرى ، وشرعا في مباراة سباب داعر حتى المساء • وفيما بعد ، حين كنا نمر بامرأتين تترادحان ، أو عراك بين أشخاص ، كان يتوقف ويصغي باهتمام ، فاذا مضينا قال لي : « سباب لا يستحق الذكر ، من العيار الخفيف •! » • أو سار دون توقف ، مشمئزا ، لانها « خناقة أوادم » أو « الفحش قليل ، كأن المتعاركات من بنات الراهبات ! » • وأشهد أنه ، هو ، لم يكن يقذع في كلامه • كان يستعمل يده لا لسانه ، انما له هواية في حضور خناقات النساء ، فاذا أقذعت احداهن ، وجاءت بجديد أو طريف ، ناصرها فورا ، فسألته عن السبب ، وأدهشني جوابه : « من يشتم يكن ضعيفا ! » قلت : « وهذه الشتائم التي تجمعها ؟ » فقال : « أنا من الهواة وقد تفيدني يوما ! » •

وها هو اليوم الذي تفيد فيه الشتائم ! ولقد حسدته وأطلقت بدوري بعض الشتائم الصغيرة في سري ، غير أن « اليازرلي » غيَّر موقفه فجأة ، اذ رأى أن الاولاد قد أوقفوا العربات وتجمهروا حولنا ، وترك العمال الشغل وتحلقوا حوله • ربما أدرك أن المعركة خاسرة ، أو استشعر حطاً لهيبته في عراكه مع هذا الصبي ، وقد يكون صديقي أعجبه ، بكل بساطة ، فعفا عنه ، كما عفا صديقي عن ولد شتمه شتيمة لم

يسبقه اليها أحد ، والمهم أن الرجل صاح به : « تعال الى العنبر وسنتفاهم » . فاشترط عليه : « امسك شواربك فآتي » . وضحك العمال وصفقوا ، فانتهرهم وهو يرتجف ، لكنه أمسك طرف شاربه وقال : « يا ابن الكلب ... تعال قبل أن يفور غضبي من جديد » . وذهب صديقي اليه ، فأمسكه من أذنيه . وهتف أحد العمال : « تذكر أنك وضعت يدك على شاربك ! » وقال اليازرلي : « أعفو عنه اذا قبّل يدي » ثم تساهل : « اذا سحب شتائمه ! » . وسحب الصديق شتائمه ، وتمت المصالحة آخيرا بفتوى عامل مسن : « فاجرة الخصام ليست فاجرة ! » . ومضى صديقي الى العربة وأنا وراءه .. وبوضع يدي على الحديد دخلت دنيا العمل وودعت الدراسة .. كان ذلك آخر العهد بالمدرسة ، وأنا في الثانية عشرة من العمر .

خالطني مس من الفرح . كبر صديقي في عيني ، وبدون اقتراح أو طلب ، رفعه الاولاد الى مرتبة الزعامة ، ولكي أكون موضع ثقته ، وأظهر عرفاني لجميله ، شرعت بدفع العربة بقوة . كان البحر الازرق الجميل ، سهلا سماوياً لا حد له أمامنا ، وعلى الرمال السميدية التي تغرق أقدامنا الصغيرة فيها ، يمتد الخط الحديدي ، مستقيما من العنبر الى الصقالة ، والموج رغاء أبيض حيي ، ينداح على العجينة الرملية للساحل

الجوني، والشمس تتوهج في سماءكرستالية اللمعان ، وتجفف، بسرعة ، نداوة الاشياء •

وعلى مدرج الصقالة ، في خط صاعـد قليلا عن مستوى الرمل ، كان دفع العربة المحملة يتطلب ضغطا أقوى • وقال صديقي : « انتبه ، هذا يسبب الفتاق » • أما في طريق العودة الى العنبر ، والعربة فارغــة ، فكان الاولاد يدفعون بقوة ، ويقفزون الى العربة التي تجتاز قسما من الرمال بفعل الاندفاع عن المنحدر • وقد راقت لي هذه اللعبة جدا ، فمنعني مــن الاسترسال فيها ، لان العربة تخرج عن الخط بفعل تخلخله على الرمــال ، وتنقلب على من فيهــا ، فتسبب لهم الرضوض والكسور ، سألته : « لماذا يركبونها اذن ؟ » قال : « ستعلم بعد قليل ! » • كان أكبر مني بسنتين ، وها هو ، دفعة ، أكبر مني ، بأعوام • هنا ليست المدرسة ، هناك كنت أنا عريف الصف ، والتلاميذ الكبار يتوددون اليّ ، وعلي ، الآن ، أن أدفع من نفس العملة ، أن أتعلم ، وأضع في حسابي أن قوة الجسد ، لا قوة الذاكرة ، هي المطلوبة •• ولشد ما نقمت على ضعف بنيتي ، وحينما صرعني صبي أصغر مني ، في نزال فرض عليّ ، انطويت على حسرة عميقة ، لاستنتاجي أنه تغلب بسبب تغذيته الجيدة ، وتعزيت بذلك وأسفت •• ولم أقل لأحد •

كنت أحسب ، في ذلك الوقت ، الفقر عيبا ، ولكم جهدت عبثا لاخفاء هذا الفقر ٠

هذا الشعور ، بالضعف الناتج عن سوء التغذية ، والنقمة عليه ، عاوداني بعد ساعات من بدء العمل ٠ لم آخذ بنصيحة صديقي ٠ أنفت مـن الغش ، ودفعت بكل طاقتي ، وكانت ضئيلة ، غير متمرسة ، فراحت تتضاءل مع كل نقلة ٠ شرعت ألهث ، وكتمت لهاثي ما استطعت ، وتجنبت عين « اليازرلي » كيلا أفضح نفسي وأخزي صديقي ٠ وفي الدقائق القليلة ، بين تحميل العربة الحديدية أو افراغها ، مضغت حبات مـن الحمص ، وهي زادي الوحيد ، في محاولة لاستعادة قواي ، ومع ذلك بؤت بفشل فاضح ٠

هل لاحظ صديقي ذلك ؟ هل اكتشف عذابي ورأى نظرة الخوف من فضيحة ضعفي أمام اليازرلي والصبية وأمامه هو نفسه ؟ جائز ٠٠ ولكي يخفف عني ، اقترح أن أركب العربة وهي تعود الى العنبر فارغة ٠ رفضت ، بل أصررت على الرفض مدفوعا بالخجل الذي اعتراني ٠ اقترح أن نركب معا ، وندفع بالعربة على المنحدر كما يفعل الآخرون ، وفعلنا ، لكن العربة كانت تقطع ربع المسافة على هذه الحال ، ثم تقف ، فننزل منها وندفعها ، وتغوص أقدامنا بالرمال التي غدت حارة أكثر

فأكثر مع تقدم النهار التموزي ، ثم استحالت الى رماد حارق قرب الظهر .

من عاش في فرن المحنة قادر على فهم المعاناة . على جمر الرمال ، وتحت لهب الشمس ، وأمامنا عربة تحمل طنا أو أكثر ، وحديدها حارق ، والجو محتبس ، لزج ، والحلق جاف كنا نسير وندفع العربة . واذ تخور قواي ، حتى درجة السقوط ، يشرع دماغي باصدار نداءات التوسل : « خطوة أخرى .. أخرى أيضا .. اقتلع القدم اليمنى من الرمل .. اقتلع اليسرى .. مرة ثانية اليمنى .. ومرة ثالثة اليسرى » .

حسنا ! جرجت قدمي ، متشبثا بكل ارادة الصمود ، ومتعللا بأمل الراحة في الظهر . أغمضت عيني حتى أوقف الدوار ، وسمحت لنفسي بالغش قليلا . خففت دفعي ، صرت لا أدفع الا مع صعود العربة مرتقى الصقالة ، وحاولت ألا أطأ الرمال ، فوجدت العوارض الحديدية أشد حرارة . خطر لي أن أتوقف في منتصف الطريق . كان رأسي يطن ، ومعدتي تفور بالغثيان الذي يسبق القيء ، ونظراتي كليلة ، غائمة ، والرمال تتماوج ، بهيئة سرابية . شعرت بالاختناق ، كالواقف على رأس جبل هواؤه خال من الاوكسجين ، وتراءت لي الجلسة عند قدم جدار ظليل ، أمنية فوق الامنيات .. ويا بيتنا المترب ،

والعتبة المدحولة . المرشوشة بالماء في القيظ ، لو أعود اليكما ، وأتمدد مستنشقا رائحة الارض والرطوبة ! يا أمي الطيبة . لو كنت قربك . والرأس على الصدر . اذن لبكيت حتى ملأت خابية المؤونة الفارغة . فأنت ، ياأم ، تفهمين بكائي. ولا أخجل به أمامك • وأنت ياسماء ! آه ما أبعد السماء ! ويسوع هناك ، والعذراء ، وأختي الصغيرة ، وأنـا ، محمولا على السحب ، أذهب اليها •• الآن أرغب في الذهاب اليها . أحسنت في الذهاب هي . وربما تحت شجرة تلعب . ولو رأتني مقبلا . ولو رأيتها جالسة . على كرسي صغير ، ولعبتهـا الصغيرة في حضنها ، كعهدي بها بيننا !

وقطعنا المسافة الى البحر ، وعدنـا الى العنبر ، فامتلأت العربة وبدأ الدفع •• أنا لا أدفع ، منذ بعض الوقت لا أدفع •• أضع يدي على الاكياس وأتجرجر •• وأعض على شفتي وأنا أتجرجر ، وأقبض ، خلسة ، على طرف الكيس ، وأتعلق به •• لم يعد البحر ، ولا البيت ، ولا وجه الأم ، ولا السماء ، ولا أختي الصغيرة في السماء ، مبعث اهتمام أو رغبة • لم يعد الوالد ، ولا الاخوات في وعاء ذكرياتي • انقطع كل شيء • انفصلت عن الوجود والزمن • تعطل معمل التصور والاحساس بما هو خارج الذات • أنا والرمال ، ولا شيء آخر • تتراخى

يدي الممسكـة بالكيس فأتهاوى على الرمال ، وأظل راقـدا عليهـا ·

قمت بخطوة ، خطوة أخرى ، ثالثة ·· وغام الوجود ·· بدت السماء تدور بسرعة مرعبة · خيل الي أنها قبة زرقاء تدور على محور غير منظور ، واشتـد دورانها فتصاغرت ، انتهت الى ما يشبه الصحن ، ثم فوهـة الطاسة ، ثم الزر ، رغدت ، أخيرا ، نقطة ضوء ، وانطفأت ·· وساد ظلام كامل ·

· · ·

حين فتحت عيني ، كان صديقي أمامي ، ووراءه اليازرلي · لم اكترث لوجود هذا الاخير · سيان عندي · ليتركني فقط حيث أنا ·· وقرفص صديقي وربت على خـدي · ناداني باسمي فلم أجب ، وبعودتي الى الوعي كانت بصلة مفقوشة على أنفي . وكف اليازرلي تسند رأسي والماء يبلل ثيابي · احسست بالراحة رغم الاعياء · ففي الظل أجلس ، داخـل العنبر اتنفس ، ورغبـة في النوم تداعب أجفاني · ورفعني « اليازرلي » من تحت ابطي ، وأجلسني على كيس فارغ وجاء « بكازوزة » وأدناها من فمي ، ولما تلاقت عيوننا لم أصدق أنه هو ·· كان انسانا آخر ، لا يقتـل الاطفال كما تصورته . والكف التي رفعتني في البدء لتلقيني خارجا ، تسند رأسي ،

وفي العينين الجاحظتين ، الصفراوين قليلا عند المحجرين ، اشفاق ومودة ، ولونه الخلاسي ، لم يعد غريبا ، ولا مخيفا .

وغادرني صديقي عائدا الى العمل . كان، فيما يظهر ، على وفاق مع اليازرلي ، وعلمت ، في القيلولة ، أن هذا لم يشمت بي ولا به . لم يقل كلمة حول معركة الصباح ، وحين سقطت على الرمال المحرقة ، ورعف الدم من أنفي ، تراكض الاولاد وصاحوا : مات ! فهرع من في العنبر ، يتقدمهم اليازرلي ، ولمّني عن الرمل ، واحتضنني بين ذراعيه القويتين ، وجاء الى العنبر والاولاد والرجال وراءه . توقف العمل وهو في عزه ، وفي حالات كهذه ، ولأي سبب ، كان اليازرلي يخور كثور ، يسحب شرشوره وينجرد وفي وجهه الشر . فاذا عف عن الضرب، فش خلقه في الارض ، انهال عليها بشرشوره حتى يفتح فيها حفرة ، واذ ذاك يسود الصمت ، وتعود حركة العمل الى سابق عهدها .

وضعني اليازرلي في العنبر ، ودلق عليّ جرة ماء كاملة . فرك شريان اليدين ، بين السبابة والابهام ، وقرّب من أنفي بصلة فقشها بكفه الغليظة ، وبمنديله مسح الدم ، فأعادني، باسعافاته ، الى الوعي . تم كل ذلك بسرعة ، وبمثلها صاح بالمتحلقين : كل واحد الى شغله ! فتفرقوا ، وبقي صديقي

بعدهم قليلا صامتا وربما خجلا متوقعا في كل لحظة أن يعنفه ، أن يسخر منه ومن « الدوري » الذي أصر على تشغيله . بيد أنه لم يفعل ، وفي النهاية أمر صديقي بالعودة الى عمله فأطاع ، وبقيت حيث وضعني على الكيس الفارغ ، منسحقا من التعب والخجل تحت رحمة أنظار الصبية والعمال .

لا أدري كم بقيت ثمة . استعدت كامل وعيي تدريجيا ، انما لم أستعد ارادتي فيما يجب أن أعمل . وددت لو تركت على ما أنا عليه . بل لم أفكر فيما أنا عليه ، ولا بشيء . كتلة لحمية صغيرة مهملة يتردد فيها نفس ، وعينان سوداوان تحت شعر خرنوبي طويل ، وعنق ناحل فوقه رأس مكور ، مدبب عند القذال ، يلتوي على الكتف ، في جلسة استرخاء ولا مبالاة ولا قدرة على الحركة . وعبر باب العنبر كانت نظراتي تطوف في الابعاد متنقلة بوني الناقه من مرض ، فيها سدور ، وتحسس مفرط ، حزين ، لكل ما تقع عليه ، تساقطت على الرمل ، انغمست في البحر ، رحلت الى الحارة ، تابعت الام والاخوات في البيت ، والوالد الغائب في طوافه المعذب في القرى ، حاملا حلواه التي جففتها الشمس وملأها الغبار وحط عليها الذباب ، ثم ارتدت النظرات من رحلتها على انكسار : ضاعت آمال العمل ، وصارت العودة الآن ، الى البيت ، مخزية ، باعثة على المزيد من الخيبة واليأس في نفوس من فيه .

العجيب أنني لم أفكر بقتل نفسي ، ولا بالموت الذي يذهب بي الى جوار أختي الصغيرة في السماء ، ولا بالعودة الى الحارة والبكاء على صدر الأم • لقد بلوت أحاسيس الأسى الرقيق ، كغيوم الخريف ، التي كثيرا ما انتابتنا عند عودة الوالد من تطوافه خائبا • كان هو نفسه يعـود حزينا ، منكسرا كمن ارتكب ذنبا • وفي هذه الحالات كان الصمت يخيم ، ويحترم كل منا شجون الآخر ، وكنت أهرب ، ان كان الوقت مساء ، وأمشي وحيدا ، متجنبا اللدات ولعبهم ، مفكرا ، على نحو موجع ، في الوضع الذي تركت عليه أهلي في البيت ، وأنام دون أن أسأل عن شيء •

وهذا الصباح ، تحديت طبيعة الاشياء الكئيبة والمألوفة في أسرتنا الصابرة ، وخرجت لأعمل • أحييت ، ربما ، أملا ••• بعثت ، في أخواتي المنتظرات ، شعورا بحلول ذلك اليوم الذي أعمل فيه وأساعد الوالد واضعا الحصاة في خابية الماء كما في حكايات الوالدة • وها أنا ، في معاناة مذلة ، أضيف ، بهزيمتي ، خيطا جديدا الى « الحبل » الذي فتله لنـا الدهر كما يقول والدي •

قررت ألا أعـود الى البيت • وحتى لو عدت الى الحـارة فسأنتظر الظلام ، وأنسل الى المنشية وأنام عند جذع شجرة •

الافضل أن أرحل، باحثا عن عمل ولقمة ، وحين أحصل عليهما، ويمتلىء جيبي بالنقود ، أرجع ، مدفوعا بلهفة شوق لا تحد ، الى أمي ، وأفرغ ما معي ، حتى آخر جزء ، في حضنها ، وأقدم لشقيقاتي الكعك والخميرة(١) • لأنهض ، اذن ، وأمش • أنسرق ، دون أن يدري أحد ، وأبتعد عن هذا المكان • لا يهم الى أين ، ولا الى متى •• ربما الى هناك ، حيث تتصل السماء بالارض ، ترى ما بعد ذلك الاتصال ؟ تنتهي الدنيا ؟ المعلمة ، في المدرسة ، قالت : لا ، الارض كروية ، والى النقطة التي ننطلق منها نعود • اغتممت • خيل اليّ أن بوسعي أن أقطع المسافة في يوم ، وأفرغ من الدنيا ، وأنا أرغب في رحيل بعيد ، لا أعود فيه الى نقطة الانطلاق •• أن أمشي ، أمشي ، وأخترق حاجب الاتصال ، عند الافق البعيد ، وأرى ما وراءه ، ذلك هو المبتغى • وربما ، كما في الحكايات ، أخذتني جنية ، وجعلتني ابنها ، وفتحت لي الكنوز ، وربما وصلت بلدة أهلها ينتظرون، ليصنعوا من القادم الغريب أميرا •• وقد أصادف تلك السيدة التي كانت في العربة ونزلت فقبّلتني وأعطتني نقودا •• وحتى لو لم أصادفها ، ولم أجد طعاما ، ولا بيتا ، فالسير ، هكذا ، الى حيث لا أعلم ، كان عزائي ومخرجي من الورطة •

---

(١) سكاكر هشة رخيصة للقرويين •

تزحزحت عن الكيس باتجاه الباب • لا أحد ينظر الي ولا من يهتم بأمري • انتظرت حتى ابتعد اليازرلي الى أعماق العنبر ، وتحركت للخروج ، واذ ذاك وقع حادث عطل مشروعي في القيام برحلتي الخيالية حول الارض •

الاكياس الخيشية التي تنتقل من العنبر الى البحر تدمغ بماركات من الاحرف اللاتينية الكبيرة • وهذه الاحرف مكتوبة ومفرغة على صفائح من التنك ، ويبقى أن يضع العامل صفيحة منها ، يختارها اليازرلي ، وفق ورقة رسمت عليها الماركات في المكتب ، ثم يمرغها بالحبر فيرتسم الحرف أو الحروف على الكيس • ولحسن حظي ، ولسوء حظ العامل أيضا ، فقدت احدى الصفائح وتوقف الشغل • فتش اليازرلي كل الصفائح ، كل الزوايا ، ولم يجدها • اهتاج ، شتم ، أوقف التحميل ، والصفيحة المطلوبة ضائعة • كان يمسك بالورقة ويضرب عليها : « هذه هي الماركة •• الباخرة لا تقبل البضاعة بدونها » ! واقتربت منه ، محاذرا ، ونظرت ، فاذا الاحرف واضحة ، وبينها حرف (H) ، فقلت وصوتي لا يكاد يسمع : « أنا أكتبها ! » •

التفت الي برأسه فقط • ومن جديد رأيت في عينيه الشراسة والازدراء ، لكنه سرعان ما استدار وسألني : « تكتب

وتقرأ ؟ » قلت خائفا : « نعم ! » فصاح بحكم العادة : « أسألك تكتب وتقرأ بالفرنجي ، لا بالعربي ؟ » قلت : « بالفرنجي أيضا ! » ولكي أثبت ذلـك ، أخذت الفرشاة ورسمت على الارض الاحرف المطلوبة • وعندما رفعت رأسي ، تلقيت أول رد اعتبار في دهشة الاعين من حولي ، وللحال سرى نسغ الحياة في دمي ، وحملت سطل الحبر والفرشاة برعدة امتزج فيهـا الارتباك بالفرح بالقوة ، بكل المشاعر المتباينة أمام تحـول عنيف ومفاجىء •

كان عليّ أن أعمـل بسرعة ، لتسيير العربـات الواقفة بحملها ، وكان اليازرلي يراقبني حتى لا أخطىء وهو يقارن بين الاحرف في الورقة والاحرف على الاكياس • وقد اجتزت ، هذه المرة ، أول امتحان عملي في حياتي بنجاح • وبين ملاحظات العمال ، وتعليقات الاولاد ، وكلها لصالحي ، كان « الدوري » يرقى أكداس الاكياس بخفة السنجاب ، تاركا وراءه الاحرف الاولى على غير دفاتر المدرسة •• كان يكتب ، الآن ، بالحبر ، وعلى الاكياس ، وأمام رجال لم يعرفوا طريق المدرسة ، ولا أمسكوا قلما الا للبري ، وعلى مرأى مـن صبية ، نشأوا في الازقة وفغروا أفواههم وهم يتابعون يـدي تنقش الحروف بالحبر الاسود اللماع •

وأقبلت عربة صديقي أخيرا • كنت قد صرت على رأس الكدس ، قرب السقف ، ومن موضعه ، على الارض ، هتف بي : « أنت ! وماذا تصنع هناك ؟ » قلت بزهو : « أكتب ، كما ترى ! » وقال اليازرلي : « دوريك ، ابن مدرسة اذن ! ؟ • • لماذا لم تخبرني من الصباح ! » • فابتسم صديقي وعاد يرنو الي • كان في صفي ، وقادرا أن يكتب مثلي ، ولو باتقان وخفة أقل ، غير أنه رفض المباهاة ، ولم يشأ أن يقلل من أهمية ما أعمل • اعتبر ذلك نصرا له ، ربما ، وربما كان قلبه الطفلي لا يعرف الحسد ، وغادرني راضيا ، سعيدا دون أن يلاحظ وا أسفاه ، أنني كنت أمارس شعورا غامرا ، زائدا عن الحد ، بالتفوق على الاتراب ، وأنني ، في هذا الزهو الخادع ، أستعيد ثقتي بنفسي ، وأنتقم من فشلي وضعتي حيال ما لحقني من عـــار •

ومن أعماق الميناء جاء صفير باخرة الشحن • الحمالون والبحارة يعرفون شارات الصفير ويترجمونها ، بل يعرفون الباخرة التي أطلقتهـــا • وراح اليازرلي يستحثنا قائـــلا : « الباخرة تطلب البضاعة » ! وألقى ، بحركة حمال قديم ومعتد سترته ، وتنـــاول الشرشور وشكه في كيس رفعه على ظهره وألقاه على العربة وانثنى على الذي يليـــه ، وهو يصرخ :

« أين همتكم يا شباب ؟ » • كان كيسه يأتي . عرضانيا . في موضعه من جسر العربـة ، فلا يحتاج الى تسويتـه أو همزه بالشرشور ، وهذه ، بعد القدرة على رفع الاكياس الكبيرة ، من زنة المئة كيلو فما فوق ، علامة المهـارة • وقال حمّال اشتهر برفع « البالات » من زنة المئتي كيلو والصعود بها على اللوح الخشبي :

ــ لا تتمرجل يا يازرلي •• نحن نعمل بأكثر من طاقتنا • عندك رجال !

ــ الرجال في العنابر الاخرى •• أنتم عجائز •• ولا أقول نساء !

ــ لو كنت ابن الوالد لأنصفت !

توقف اليازرلي وحدجه بنظرة ثم بصق :

ــ صدقت •• أنا ابن ••• . لاني أشغل معي ابن ••• مثلك ؟

فتدخل حمّال ، من الطرف الآخر :

ــ اذا كنا لا نعجبك اصرفنا •• ألف من يستجير •

ــ طبعا •• لان الدنيا صيف •• وفي الشتاء تتغير اللهجة . تقبلون النعل ••

ـ تقبيل النعل – قال حمال أعور – ليس من شيمنا ٠٠ أنت تعرف رجالك لولاهم كنت شحاذا ٠٠

فصرخ به اليازرلي :

ـ اخرس والا فقأت عينك السليمة ، يا أعور الدجال ٠

سحب الاعور شرشوره وانحدر عن الاكياس :

ـ اذا لم تكن امرأة تفعل ٠٠

ـ وأكون امرأة ان لم أفعل ٠٠

ارتبكت ، لشدة اضطرابي ، فدلقت بعضا من الحبر على الكيس ٠ لم أصدق أن في الدنيا أناسا . يتشاتمون ويتضاربون بمثل هذه السهولة ، ولغير ما سبب ٠ كنت أجهل ما تنطوي عليه الكلمات من تعريض ، وما في الصدور من رغبة مجردة للعراك ٠ وفي دهش ورعب تابعت حركة الشراشير التي أشرعت كالأسنة. ولاحظت أن اليازرلي جحظت عيناه أكثر ، والاعور تزججت عينه السليمة فهي لاتطرف ٠ ومن على الاكياس انحدر الرجال. واحتضنوا المتخاصمين وأبعدوهما ، ورضي اليازرلي بالمداخلة فصرخ : كفى ! عودوا الى الشغل وفي المساء نتحاسب ٠٠

وقفز الحمال ، رافع البالات ، وتربع على الارض ، صائحا وهو يخبط لبادته فتثير سحابة من غبار :

ـ أما أنا فلن أرجع ‥ سأسكر هذه الليلة !

ـ أنت حر - قال اليازرلي - بعد الشغل افعل ما تشاء ‥

ـ ستعطليني اذن على الحساب ‥

ـ فشرت ‥

ـ تدينني حتى أقبض ‥

ـ فشرت أيضا ‥

ـ وربك - أقسم - لن أنهض حتى أعرف مصيري ‥ أنا ضيفك هذه الليلة يا يازرلي ٠

ـ هذا حبا وكرامة ‥ تعال مساء الى الخمارة ‥ واشرب حتى تنطفىء ٠

ـ لا شغل لي في الخمارات ٠

وتعالت أصوات :

ـ يريد « تعيينه(١) » ناشفا ‥

ـ نعم ‥ أريده ناشفا ‥

ـ هذا يتوقف على الشغل ‥

---

(١) الحصة من المؤونة أو الطعام ٠

ـ كلمة شرف يا يازرلي !

ـ هذه كلمة اليازرلي ·· هيا ·· عوضوني ما فات ·· شيلوني ··(١) ألا تسمعون صفير البابور ؟

نهض الذي يتربع تاركا لبادته على الارض · زغرد ودار على نفسه كالبهلوان ، وأزاح اليازرلي من طريقه وباعد بين رجليه وتناول الكيس ·· وعلى الفور علت القهقهات ··· وفيما أنا أعمل راقبته لأعرف سبب الضحك ، فاذا هو يعر ككلب ينهش الاكياس ، فاذا بلغها رفع الكيس بين ذراعيه ، مسندا جانبه الى صدره ، وسار به فألقاه في العربة · فصاح به اليازرلي مشجعا :

ـ أحسنت ··· آه يا حطاط للحايم عشاه(٢) ·

احتج أحدهم :

ـ ونحن لا نقصر !

ـ وأنتم لا تقصرون · (اعترف لهم) ·

---

(١) شيلوني ، من شال ، أي ارتفع ، والمعنى ارفعوني في زحمة الشغل ·

(٢) يقصد به الزير سالم ، الذي أمسك السبع وأدخله الاسطبل وربطه موضع حماره الذي أكله ·

ـ وأنت تتشدد معنا عند الانصراف ··

ـ لانكم طماعون ·· انظروا ··

التفتّ فرأيت حمالا أشيب ، له صوت حاد وضحكة مثل قوقأة الدجاجة يعود من الخارج · لم أفهم شيئا · وعاد الحمالون الى الضحك ، وقال الاعور :

ـ قضاها !·

ـ نعم ·· قضيت حاجة ·· مثل الناس ·

فصرخ اليازلي :

ـ شيبة ضالة ·· أين خبأت الحنطة ؟

وحلف الأشيب ، فتركه اليازرلي ومضى الى الخارج ، وبعد لحظة عاد وبيده كوفية مزمومة على نصف تنكة من القمح ، فكها وأفرغ ما فيها على الكومــة المتجمعة من الاكياس التي تتمزق عند تحميل العربات ·

عند الظهر كنت قــد تأصلت في « وظيفتي » · وبقيادة صديقي ذهبنا الى البحر وغطسنا · وأطعمته بعضا من الحمص فتقبله · وكذلك أكلت من زوادته · وعدت مرحا الى عملي · لقد أحببت العنبر ورجالــه وشتائمهم ومعاركهم والروائح

النتنة . وفيما أنا أرسم الحروف شرعت أتصور طريق العودة الى البيت ، والكلمات التي سأقصها على الوالدة والاخوات . . كدر واحد نغص فرحتي : أن أرجع فلا أجد الوالد في البيت .

في المساء ، بعد العمل ، أصر اليازرلي على تفتيش الرجال . كانوا قد ألقوا ستراتهم على أكتافهم استعدادا للخروج ، فقال اليازرلي :

ـ الشوب يحرق ذنب العصفور وأنتم في الجاكيتات . . على « فرنكا »(١) ! اقتربوا مني .

كانت السترات ذات جيوب كبيرة ، خامية ، تحت البطانات . وظهر كما حزر اليازرلي ، انها ملأى بالقمح والعدس وصنوف الحبوب . وكانت للسراويل جيوبها أيضا ، فأمرهم :

ـ افرغوا ما معكم على الارض . .

فصاح الآشيب :

ـ شفت ؟ عدت الى التشدد . . ليس معي الا حفنة حنطة « سليقة »(٢) للصغار ، من الكناسة(٣) !!

---

(١) على فرنكا ، أي على الفرنجي ، والمقصود الزي الرسمي !
(٢) ما يسلق من القمح في الاعياد ، أو لتحويله الى برغل .
(٣) ما يتناثر من حب على أرض العنبر ، ويكنس !

ـ الحفنة ، والحفنتان ، والثلاث ، اتركها ٠٠ أما الاكثر يعود ٠٠ اذا نقص الوزن انخرب بيتي ، افرغوا جيوبكم ٠

وطفقوا يقلبون جيوبهم ٠٠ ثم اقتربوا فتحراهم واحدا واحدا ، ولاحظت أنه يتحرى بعضهم بصورة شكلية ، ويتسامح بالكميات الصغيرة ، ولما جاء دور الأشيب انفجر الضحك ٠ كان يمشي كمن به فتاق ٠٠ ففي الية شرواله رطل من القمح ، وما ان مد « اليازرلي » يده اليها حتى صاح الأشيب :

ـ آه يا فتاقي ! قتلتني يا ابن الكلب !

وركض باتجاه الباب وخرج ، والحمالون وراءه ، وضحكت ، لاول مرة ، ضحكا من القلب في ذلك اليوم ٠ حتى اذا هممت بالمسير ، استوقفني اليازرلي :

ـ لا تذهب أنت ٠٠ لي معك شغل انتظر قليلا ٠

قالها وصرف الاولاد ، بمن فيهم صديقي ، وغاب هو في أعماق العنبر ، يتفقد الابواب والبضائع ، وأنا أعجب لسهره وأمانته وقسوته وطيبته في آن ٠ فلما فرغ من ذلك ، أخذني الى مشارف النور ، عند حافة الباب ، وأخرج دفترا صغيرا من عبه وأمرني :

ـ اكتب ما أقول لك : نقدة لجواد بتاريخه ٠٠ وتحتها ٥

كيلو عدس • نفدة بتاريخه للاقرع •• وتحتها ١٠ كيلو حنطة •• نفدة ••

فلما كتبت له ما طلب ، أعاد الدفتر الى عبه وأعطاني ثلاثة قروش مع هذه الملاحظة :

ـ هذا خارج الحساب •• لا تقل شيئا لأحد •• فهمت ؟ وعبس وصرفني •

كانت يداي ملطختين بالحبر ، وخشية ألا يكون ظاهرا عليهما ، لطختهما أكثر قبل الانصراف ، ودخلت الحارة وأنا مرسل الذراعين على الجانبين ، مفتوح الراحتين ، ليراهما الناس • وفي البيت كانت البشرى : عاد الوالد ! وعانقتني الوالدة وبكت فرحا ، وبعد أن قصصت عليها كل شيء ، ما عدا حكاية « النفدات » ، أعطيتها القروش الثلاثة ، فركعت أمام ايقونة العذراء ، ونذرت لها نذرا ، وخرجت فطافت بيوت الجيران قائلة :

ـ سمعتم ؟ ابني توظف •• كاتب ، والعقبى لأولادكم •

• • •

جرى في نهاية الاسبوع الاول ، دفع الحساب للرجال والاولاد من قبل موظف أرسله التاجر صاحب العنبر

واستمهلني اليازرلي ، كعادته كل مساء ، وأمرني بعد ايضاح الاسعار لكل صنف :

ـ قرّش لي النفدات ٠٠ كل اسم على حدة !

فعلت ٠ فهز رأسه وشتم ، قال :

ـ جمعاً يكون !

جمعت له النفدات وأثمانها ٠ فعاد يهز رأسه ويشتم :

ـ كانوا يسرقونني ، أولاد الكلب ، أنا الذي لا أكتب ولا أقرأ ٠٠ والآن بـدأ الشغل المضبوط ، صار عنـدي كاتب والحمد لله ، تعال غدا الى المقهى سأكون بانتظارك ٠

ذهبت ، فنفحني بعض النقود مكافأة ٠٠ وفي الايام التالية ، سألني بعد تسجيل النفدات الجديدة :

ـ لماذا لا تلبس سترة مثل الآخرين ؟ البس سترة ، وقل لأمك أن تكبر جيوبهـا ٠٠ ستأتي أيام الشتاء ، وقليل مـن « السليقة » ضروري ٠

ولتهوين الامر عليّ ، ودفعا لسوء الظن به ، أشار الى كومة من القمح عند الزاوية :

ـ الذي يقطف العسل يلحس أصابعه ٠٠ نحن هنا لا نلحس

أصابعنا ٠٠ أنا لا أسمح بذلك ٠٠ أما هذه فكناسة ٠٠ لا بد من تكنيس الارض ٠٠ من خيرها ٠٠ لا فضل لأحد ٠

لم آبه لكلامه ٠ تارة يتمزق كيس ، وطورا يمزقونه عمدا ٠ ونفداته لا أراها ٠٠ أسجلها ولا أراها ٠٠ لكنني أشك أن تكون من الكناسة ٠٠ الأرجح من « العسل » ٠ ولم تخطر لي خطيئة لحس الاصابع التي تقطف العسل ، ولو خطرت وقلتها للآخرين لضحكوا عليّ ، وربما ضربوني ٠٠

على أني عثرت ، وأنا أنقب في العنبر ، على صناديق فيها كراريس من طباعة محمد البابلي الحلبي وأولاده في مصر ، أو في حلب ، كان الاسم موجودا عليها ٠ وكان أحدها مخلوع الغطاء ، فأخرجت كراسا عليه رسوم وقرأت أول قصة من « ألف ليلة وليلة » ثم رحت ، كلما سنحت الفرصة ، أحوم حول الصناديق لـ « ألحس أصابعي » أنا أيضا ٠٠ ورآني اليازرلي فأقبل نحوي وهو يبتسم :

ــ خذ منها ما تشاء ٠٠ هذه « الكناسة » للفيران ٠٠ لا يهتم بها أحد ٠

وتأكدت، طوال عملي معه، أن أحدا لا يهتم بهذه «الكناسة» سوى كاتب النفدات ، وجرذان العنبر ٠

بعد ذلك ، وبصورة مفاجئة دخل اليازرلي السجن ، حزنت لأجله جدا ، وأسف الحمالون وتحدثوا عنه • كانوا ، حياله ، فريقين • ولم أفهم ما وقع تماما الا من صديقي :

ـ اليازرلي هجم على جارته وهي عارية كما خلقها الله •

وطلبا للتفصيلات المثيرة سألته :

ـ بدون أي قطعة ثياب !؟

ـ أقول لك عارية •• مثلما جاءت من بطن أمها ••

ـ وكيف رآها عارية ؟

ـ كانت تتحمم(١) •• جالسة في « لقن(٢) » كبير ، وصدرها ، ونهداها ، وظهرها الابيض •• أنت لم تـر في عمرك امرأة عارية ؟ (وفرك كفيه) آه لو أرى امرأة عارية مثله !

ـ وماذا تفعل بها ، عيب !

ـ عيب (ودفعني في صدري بلطف) أنت صغير بعد •• اذهب واركع أمام العذراء •

---

(١) تستحم •

(٢) « اللقن » : الطست الكبير المجوف ، للغسيل والاغتسال •

في تلك الليلة لم أركع أمام العذراء • أردت أن أثبت أنني كبير ، ونمت وأنا أفكر بالمرأة العارية ، الجالسة في « اللقن » ، بيضاء البشرة ، مكشوفة الكتفين والصدر والظهر •• وقد عذرت اليازرلي الذي رآها ••• لكنني عجبت كيف رآهـا ، وكيف ملك الجرأة على اقتحام البيت ، وتساءلت : لماذا خاطر ودخل السجن ؟ من أجل امرأة !؟ وماذا فعل بعـد أن دخل عليها ؟

على أن سجن اليازرلي لم يطل • خرج بكفالة التاجر • واستأنف عمله في العنبر ، واستأنفت أنا تسجيل « النفدات » • عادت صيحاته ومشاجراته مع العمال وفيها ، أحيانا ، بعض التلميحات التي كانت تستثيره فينقلب مجنونا لشدة الغضب •

لقد وجدت فيه « انسانا لا يخاف » وأحببته من أجل ذلك •• ويوم الاحد ذهبت اليه في البيت ، فرأيت عنده « حمال البالات » وهما يشربان العرق • كان الحمال جالسا أمامه يصغي ويضرب رأسه طربا ، واليازرلي يغني متوعدا الذين شهدوا عليه ، والذين تقوّلوا بحقه زورا • كان يضع كفيه على اذنيه ، وينحني على صاحبه ويصرخ :

والسبـع لمـا وقـع النذل قال لـه : العمى
واللي يشهـد الزور يبلاه بكاسات العمى !

• • •

ثم حدثت الهجرة من اللواء وافترقنا ·· عشرون عاما لم أره · لم أسمع بـه ·· وذات أصيل ، فيما أنـا مع بعض الاصدقاء ، في أحد شوارع دمشق ، أبصرته عند بوابة احدى المدارس · كان الهرم والفقر باديين عليه ، وأمامه « طبلية » يبيع عليها السكاكر للاولاد ، فاقتربت منه وحييته ، وعرّفته بنفسي فسلّم عليّ ، وقال له أحـد أصدقائي ، وكان يعلم بالقصة :

ـ حنا اليوم معروف : كاتب !

فابتسم على شيء من أسى وذكرى ، وأطرق وقال :

ـ نعم ·· أعرفه ·· بدأ الكتابة عندي ! على الاكياس !!

١٩٧١

مأساة ديمتريو

« لا يمكن !

« لا يمكن !!

« لا يمكن !!!

« يا ديمتريو ، أقول لك لا يمكن . أتفهم ؟ للمرة الالف ، هذا الشهر . والذي قبله ، قلت لك لا يمكن ، أتفهم ؟

قال ديمتريو لديمتريو بتسليم : « نعم لا يمكن .. أفهم ذلك ، أفهمه وأؤمن به ، وقد قلته لك ، أنا نفسي ، منذ اللحظة الاولى » .

صاح ديمتريو الآخر : « أنت تكذب أيها الوغد . يا جوّاب الآفاق ، تكذب وتعلم أنك تكذب ، فلماذا تتظاهر بما لا تؤمن ؟ حدق بوجهك في المرآة .. ألا ترى وجهك ؟ » .

عبر المرآة ، حدق ديمتريو بديمتريو ، تحديقة خصمين

متباغضين ومتلازمين • حسنا ! قال أحدهما للآخر ، اتفقنا أنه لا يمكن • يجب أن نجزم ، هذه الليلة ، والى الابد ، بأنه لا يمكن • لقد اقتنع كلانا ، باستحالة ذلك ، ومن الغد تتحول هذه القناعة الى سلوك ، كالذي كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء •

في هذه اللحظة ، شع شيء ما ، في الجانب الايسر من الصدر، وترك احساسا بالاختلاج كما يحدث تحت تأثير نزق عصبي ، عقب فكرة تمر بالبال ، أو صورة تهز الخاطر • وللتأكد من السلامة مد ديمتريو الواقف أمام المرآة ، وكذلك ديمتريو الذي في داخلها ، يده الى الجانب الايسر من صدره ، وانتزع لفافة ورقية على شكل قلب ، فتحهـا ، ثم تحول الى المصباح ونظر فيها ، واذ لم يجد شيئـا داخله سرور وراحة ، فراح يطويها ليعيدها الى مكانها ، فلما فعل ، لمح ظلالا عليها • كانت في الورقة خطوط رفيعة لا تكاد تبين ، تزداد ارتساما كلما ازدادت اقترابا من الجسم ، وامحاء كلما ابتعدت عنه • خيل اليه ، للحظة ، أن الخطوط المستقيمة تنحني قليلا وتتلاقى في زاويتين حادتين جدا ، ثم ترتعش الخطوط ، وتتجسم ، ويرف من فوقها ألق ذكره بما كان قد رأى ، يوما ، على ثغر المجدلية • وسمح الألق لنفسه بالانقسام ، لتتشكل من كل قسم شفة بلون

زنبقة الحقل ، تنفرجان عن أسنـــان مرمرية ، كحصاة تحت رقراق بحيرة جبلية ، والحصاة تومض ببهاء أبيض ، حين تنشمر الشفة العليا ، مظهرة نتوءا ورديا من اللحم الذي يصلها باللثة ، ثم تتكور ، في تقوس بدري ، لتغدو ، مع الشفة السفلى ، محارة مرجانية تنشق عن تلك الحصاة اللؤلؤية •

صاح ديمتريو : « انها هي! انها هي ! » وأغمض عينيه مستسلما الى النشوة التي بعثتها الرؤية ، وشاعرا ، الآن ، بالعجز ، عن مقاومة الرؤية • لقد تضعضعت ارادته ، والقناعة التي توهم أنها حصلت تزعزعت ، وسلوكه ، من الغد ، لن يكون كما كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء •

فتح عينيه خائفا ، كارها أن يرى ديمتريو الآخر في المرآة • سيصيح به : « أيها الوغد ، يا عازف الكمان المتشرد ، أتحسب أنك قادر على التمويه الى الدرجة التي تخدعني بقناعتـــك الكاذبة ؟ اذا كنت صادقا ، فامح ما على ورقتك التي أخرجتها من صدرك ، وعندئذ فقط يتحول سلوكك كما كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء ، وتعود ورقتك بيضاء ، كما كانت قبل الكتابة » •

نظر ديمتريو الى ديمتريو في شكاة صامتة : لماذا تتهمني ؟ أنت تعلم أنني لم أكتب شيئا على هذه الورقة ، ولم أرسم عليها

خطــأ ، صدقني ! أقسم لــك فصدقني •• حسنا •• أنت لا تصدقني ، أنا نفسي لا أصدق نفسي ، فما دام على ورقتي رسم ، فلا بد أن يكون ثمة رســام ، هذه بدهية يا توأمي ، يا ذاتي ، وأنا لا أجادل في البدهيات ، لست سفسطائيا ، ولا خياليا ، واقعي أنا ، واقعي أكثر مما يجب • ولم يخطر لي أن أنقض المسلمات : واحد مع واحد ، والخط المستقيم ، والعلة والمعلول •• كل هذا صحيح ، وقد عشت على الايمان بهذه الصحة ، ولكن الرسم ، على ورقتي ، لم أرسمه أنا •• الألق المجدلي ، الحصاة المرمرية ، المحارة المرجانية ، والشفاه التي بلون زنبقة الحقل ، لم أرسمها أبدا ، ولا أستطيع لو أردت ، وصاحبتها لم ترسمها أيضا ، لا أنا ولا هي ، كلانا بريء ، كلانا يقول لا يمكن ، والمنطق يقول لا يمكن ، والعقل يقول لا يمكن ، ومنذ أبصرتها قلت لا يمكن •

توقف ديمتريو عن دفاعه ليستزيد من قدرته على الاقناع • استشعر تصاعدا في طاقته المعنوية ، وكمن يحلل نفسه ، خيل اليه أن كشفه عن جذور عقدته قد وضع في يده امكانية حلها • صار واضحا له الآن أن الحل رهن بانتصار ارادته على عاطفته ، وكان معتدا بتلك الارادة فأضاف : « أؤكد لك يا توأمي أن الاشياء ستكون كما أريدها • واذا كانت عاطفتي قد ربحت

على ارادتي ، فان ارادتي لا تستسلم للهزيمة ، انها تصارع
.. أنا أصارع ، لانني مقتنع ، ومن الغـد أحول قناعتي الى
سلوك كالذي كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء ،
وتعود ورقتي بيضاء ، كما كانت قبل الكتابة .

كانت أمامـه ، على الورقة ، ابتسامة . تنـاول ممحاة
واستعد لمحو الابتسامة ، لكنه احتار من اين يبدأ . ما يريده
هو اطفاء الالق المشع في تلك الابتسامة ، وسيفعل بغير تردد ،
وكل ما عليه ، لكي ينجح ، أن يكتشف منبع الالق ، وينقض
عليه بممحاته ، فيزيله ويستريح .

أيها السيدات والسادة ، يا من عانيتم كما أعاني ، هـل
تعرفون ، فيثغر شفتاه بلون زنبقة الحقل ، وتكويرته اللوزيـة
محارة مشقوقة عنحصاة لؤلؤية، من أين ينبع ألقالابتسامة؟
أنا واقعي يا أهل مملكتي ، منطقي ، أومن بالعلة والمعلول ،
والرسم والرسام ، وأعرف مثلكم ، أن الالق سراب . لكنني
بخلافكم ، أبحث عن سره فهل اهتدى أحد منكم الى هذا السر ،
واستطاع أن يمحوه ؟

تشيرون الى الشمس ؟ ألم أقل لكم انني واقعي ومنطقي ؟
لألاء الشمس لا يطفأ يا سادتي . ستنطفىء هي لذاتها يوما .

وهذا بعيد ، بعد ملايين السنين ، وأنا أسألكم عن شمسي ، عن الابتسامة التي في ورقتي ، من أين ينبع لألاؤها ؟ بين الشفة والشفة وميض برق فمن قبض منكم على وميض برق ؟ ثغر دليلة كانت له شفتان أيضا، بينهما لذة وسم ، وثغر الجوكندا له شفتــان ، تنث منهما قداسة • شيء يدعــو الى الراحة والطهر ، وهــذا المرسوم على ورقتي ، يختلف • لا ســم ولا ترياق • زاويتا قوسين شفويين ، ينفرجان عن ابتسامة ، وابتسامة تضيء ، وأنا أبحث عن مصدر الضوء ، عن سره •

« حسنا ! ــ قال ديمتريو ــ سأمحو الشفتين معا ، ما دام منبع الالق محصورا فيهما » •

قالها بتأكيد ، وقد استشعر حاجة ، كنداء الثأر ، الى محو الشفتين اللتين أمامه على الورقة . فلما رفع رأسه فجأة ونظر في المرآة ، التقى ديمتريو الآخر ، الذي سأله بهدوء وتهكم :

ــ ماذا تنتظر ؟ تخاف ؟ يا لك من جبان ! آه يا توأمي العزيز ، أنت تخدع نفسك في غير طائل ، ولو أدركت أن ما تردده من عزم على محو الابتسامة وهم ينشد عزاء مسكينا لأرحتني واسترحت •• ألق بالممحاة من يدك • ألقها وامض غدا ، كاليوم ، كالامس ، في سلوكك المألوف ، العاجز ، التابع ،

فالذين يمحون أقدار البسمات والعبرات ، يملكون أصابع غير أصابعك ٠

نكس ديمتريو رأسه معترفا بصدق وعدالة هذا الحكم ٠ لم يكن بحاجة اليه أصلا، فهو يعيش منذ شهور يبني الهيكل في المساء ، وينقضه في الصباح ، « آه يا آلهة اليونان ! ـ هتف ـ صخرة سيزيف ارفع ؟ أنا لم أفش سر النار ، ولم أعشق ، آلهة من الاولمب ٠ وما أنشده بسيط : قضاء ما تبقى من رحلة العمر في هدوء وسلام ، بعد أن ودعت الصبا وحسبت ألاّ معاد ، فالشجرة قد دب فيها اليباس ٠ لست بستانيا ، ولا أعرف أن الشجرة تخضر بعد يباس ، وهاهي الشجرة تخضر بعد يباس» ٠

كم يدوم هذا ؟ لا تسألوا ٠٠ المعجزة تحدث أحيانا ، واذ تحدث ، في غير أوانها ، تكون معجزة المعجزات ٠ وعلى فراش الموت ، قبل الغروب الابدي ، دعاني يوما رجل وقال لي : « اعزف شيئا من ألحانك يا ديمتريو ، أحس أن زهرة جديدة تتفتح على غصني » قلت : « سمعا يا سيدي » ولم أعزف ، حسبته في هذيان النزع ، وتهيبت دموع الاهل ، لكنه مد يده النحيلة ، الصفراء والمعروقة الاصابع ، وأمسك بيدي وقال : « ديمتريو ! الحطاب آت لقطع الشجرة ٠ أسرع ٠ ساعد زهرتي الاخيرة على التفتح قبل أن يفوت الاوان ٠ أنا سعيد يا ديمتريو

لأن شجرتي ستقطع وهي خضراء • كذلك أردتها وكذلك كانت وأتمنى لشجرتك أن تكون مثلها ، كما أتمنى لك ، من بعدي ، طول البقاء ، ولكن أتمنى لك بقاء أخضر ، يزهر حتى النهاية ، فهل تعزف قليلا كرمى لخاطري ؟ » •

عزفت • •

كماني تبلل بدموعي • ترطب الخشب وصار أرخم • صار أعمق • وأزهر الغصن ، واللحن أزهر ، ومضيت أعزف ، دون انتقاء ، دون عناء • أحسست أن زهرة ما ، في داخلي ، تتفتح أيضا، وأن الربيع قد ألغى الشتاء، وانه يجري في يدي وقوسي وكماني • وجدت في نفسي شجاعة فائقة على مقاربة الموت ، على ملاقاته • صار الموت أنعم ، مخملي الملمس ، ومر بقربي ، وحط على صدر صاحبي، وتسلل اليه رفيقا ، هادئا ، كالنوم عقب النعاس • ولم آشعر بشيء • ولم أع ما حدث الا عندما تقدمت زوجه وربتت على كتفي قائلة : « توقف يا ديمتريو • • قضي الامر » • • نظرت الى الرجل • • كان يبتسم وقد مات • الشجرة الخضراء ظلت خضراء حتى قطعت •

وقد نسيت الرجل وأمنيته مع الايام • لم أكترث لما قاله وهو على الخط الدقيق الفاصل بين الحياة والموت • ذلك أن أمر الشجرة لم يعنني كثيرا • فحبي الاخير ، كايماني القديم ،

كغصني الذي كان مليحا وانثنى ، كصورتي يوم لا بياض ولا غضون ، كموداتي التي سلفت ، كولدنات يفاعتي التي يبكي عليها وقار كهولتي ، انقضى ، مضى ، خلفني وحيدا أمام النار المنطفئة ، أمام العدم القاسي الزاحف نحوي بعيون باردة • ولم أكن ، يا اخوتي ، صانع معجزات ، ولا ساعدت ، مرة ، معجزة على الحدوث ، وحكاية الاخضرار بعد يباس لم أحفظها، لم تكن لي علاقة بها ، أنا الذي عرف الهوى حتى مله ، لأنه أبدا لم يروضني ، لم يحتفظ بي أسيرا في قبضته ، ولا جعلني أتألم حتى البكاء •

ولأني نشأت محروما من نعمة الالم في الحب فقد نبذته • خيل اليّ أنني تجاوزته ، او أنني لم أعرفه ، لأنه ، حين كان يأتي ، خفيفا كالصداع الذي يداوى بحبة مسكن ، أو كالشهية التي تخمدها لذة وجبة، كنت أغمض عيني وأنام، وكان الصباح كفيلا بأن يجعل في الماضي ، ما كان مساء في الحاضر ، حتى اذا بزغ نجم جديد ، كان يكفي أن أدير له ظهري لأنساه ، أو أدخل بيتي حتى لا يعود له تأثير فيّ •

وحين رأيت هذه الابتسامة ، ذلك اليوم ، حسبتها احدى تلك النجوم البعيدة ، التي يضحك مــن حرارتهــا السائــر في الصحراء • غير أني كنت مخطئا ، وأنتم تشهدون على خطئي ،

وأنا أرغب في محو هذه الابتسامة ، وأنتم تشهدون على فشلي ، فمن منكم يدلني على مادة كيميائية تعيد ورقتي بيضاء كما كانت ؟ الزمن تقولون ؟ لا ٠٠ الزمن يحيل الاشياء الى ذكريات وأنا ألعن الذكريات ، أمقتها ، أمقت ومضة الاسترجاع هذه ، ألتي تعيش فيها الكف الخالية على وهم ما كان . ويتضفر الجسم ، في شراسة ليالي السهد ، على أشباح أجسام ٠

وحتى لو ملكتم هذه المادة الماحية ، وجربتم أن تساعدوني ، لما غفرت لكم بقية عمري ٠٠ لا تصدقوني اذن ، أنا ديمتريو الذي يعيش مأساته المروعة ٠ ان ذاتي لا تصدق ذاتي وديمتريو الآخر لا يصدقني ، يصيح بي : « كف عن عبثك ٠ توقف عن محو ما في ورقتك ، وأعدها الى صدرك، ثم احمل كمانك واذهب الى تلك السيدة واعزف لها آناشيدك » ٠

توقف ديمتريو عن عملية محو الابتسامة ٠ كانت يده ، في أصابعها الثلاثة المضمومة ، قد حكت الورقة طويلا فتصلبت شرايينها ٠ ولم يعاود النظر في المرآة ٠ أحس بعداء نحو توأمه الذي سيطالعه فيها ٠ كان هذا التوأم بغيضا بقدر ما كان حقيقيا ، كان شاهدا لا يمكن حذفه ولا خدعه ولا اسكاته ٠٠ وفي فترة الاستراحة ، ريثما يعود الدم الى الاصابع المتيبسة ، راح ديمتريو الآخر يتحدث ٠٠

في ذلك الاصيل كانت السيدة تقرأ في كتاب . وكان زوجها يعالج طائرا مكسور الجناح . وكنت أنا أعلم طفلهما العزف على الكمان .. لقد استدعيت لأداء هذه المهمة وقبلت، وعبرت الصالون الى الغرفة ، وبعد الانتهاء عبرته الى الباب ، وحييت بأدب وخرجت . لم يبق في ذهني ، ذلك الاصيل ، من هيئة البيت سوى البوق من قرن الايل ، وموقد الحطب ، والزوج الذي يعالج طيرا . وفي الدرس التالي ، حين عبرت الصالون ، كان الزوج في مكانه والزوجة علــى النافــذة فأعطيت درسي وانصرفت .

انقضى على ذلك أسبوعان ، فلما كان الثالث ، سمعت، وأنا أهم بطرق الباب ، عزفا على الكمان . كان النغم شجيا ، ينداح تحت قوس رشيق، ليس لتلميذي بأية حال . تريثت في الدخول . فلما خفت وقفتي المتنصتة، طرقت الباب ودخلت . كانت السيدة تسرع في ايداع الكمان صندوقها ، كأنها ترغب عن معرفتي بعزفها . توقفت على العتبة لأخلع الواقي المبلل ، واستقامت السيدة من انحناءتها على الصندوق ، ونظــرت اليّ مبتسمة متسائلة : هل سمعت عزفي ؟

الوجه باسم ، فيه مزيج من كبرياء ووداعة . ولونه الوردي يشف عن عذوبة جارحة . والعنق الى طول ، والشعر ذهبي ،

مرسل ، وعيناها مضيئتان ، وسطهما نقطة عسل أصهب .

كانت ، هي الاخرى،في نهاية الصيف ، في الزمن الذي ينضج فيه العنب ويعتصر . وكالخوخة الصفراء ، في عز الاستواء ، شهية ومثيرة ، وشيء في المقلتين ، كالرضاب، كالالتماعة في العين الشبقة ، يغزل بوحا ساكنا ، صارخ الفتنة .

حسنا ! كل ذلك رأيته ، وربما تخيلته ، في تلك الليلة ، وأنا تحت تأثير اضطراب لا أدري أكان مبعثه عزفها أم وجهها ، هذان اللذان ، في السمع والبصر ، أيقظا احساسا مبهما من الاعجاب والرغبة ، وأحدثا ما يشبه الهزة التي تتشقق لها قشرة الاديم النفسي فتنبجس الاشواق في اندفاعة عضوية .

لقد سبق ورأيتها فلم أتأثر ولم أضطرب . طوال أسبوعين وأنا أتردد على البيت لاعطاء الدروس، فكيف حدث ولم يلفتني وجهها ؟ هل كان ذلك لأنها كانت مستغرقة في كتابها ، حاجبة عني ملاحتها ؟ ولماذا لم أستلطفها في المقابلة الاولى ؟ ألأنها لم تكن واقفة ؟ ألأنها لم تنظر الي ؟ أو لأنها لم تبتسم ؟ يا سيدتي لماذا ابتسمت اذن ؟ أنا لا أتهمك؟ أسمعت يا ديمتريو ، ياتوأمي ، أنا لا أتهم السيدة لأنها ابتسمت ، فهي لا تستطيع الا أن تبتسم ، وأنا ، كذلك ، لا أتهم نفسي . أنا لا أفعل شيئا يا ديمتريو ، ولم أشعل قنديلا على شجرتي الخريفية .

دعتني الى أخذ حظ من دفء وكوب من شاي • وقال زوجها مؤيدا دعوتها : « نعم ، هذا ما يجب ! » فقبلت شاكرا ، شاعرا أن لطفا كبيرا يحيطني ، ثم سألتني عن أشياء ، وأجبتها بأشياء، ولما أعطيت درسي وخرجت ، تلفت بعفوية الى الباب • أحسست فراغا قد حدث ، ولهفة الى العودة تشهت ، وطغت صورتها على موقد النار وقرن الايل ولم يعد رعي الماعز في الفلاة تشردا حرا ومرجوا لجوّاب الآفاق • لقد تدجن الحيوان البري، وصار ينتظر موعد دخول المدجن بحنين لاهف • وفي الليل طفقت الابتسامة تطل ، فأدركت بفرح وأسف ، أن قدري يوشك أن يقول كلمته، وصحت في محاولة للردع ، هذا لا يمكن ، ومنذ تلك الساعة وأنا أصيح لا يمكن وسأظل أصيح ، حتى النهاية ، لا يمكن ••

سكت ديمتريو الذي في المرآة، واستأنف ديمتريو الذي أمامه عمله في محو الابتسامة • كان يعمل ، الآن ، مدفوعا برغبة لا تقاوم ، في ازالة الابتسامة عن ورقته ، لكي يعيدها الى مكانها ، ويذهب الى فراشه فينام ، كما في الايام الخوالي ، بغير قلق ولا انفعال •

ساعة • ساعتان • ثلاث •• كلت يده اليمنى فجرب اليسرى • عاد الى اليمنى ثم الى اليسرى ••• ظلت الابتسامة في موضعها من الورقة • هي لا تظهر ، لا تختفي ، لا تتحرك ، لا تتثبت •

يحسها اذ يراها ، ويراها اذ يحسها ، ويعذب نفسه حتى التلف ليجنبها الوقوع في حب بغير جدوى ٠

تهالك آخيرا تحت ضغط اعياء شديد ٠ دخل في الدائرة الحلزونية المتفلة للجنون الواعي ، فتوقف ، وهتف من أعماقه:

ــ وبعد ٠٠ لماذا لا أنتهي أو أموت ؟

وأجابه صوت من المرآة :

ــ لأن الموت راحة ، وبينك وبينه مراحل بعد ٠٠ لا تتعب، صخرة سيزيف لن ترفع بهذه الطريقة ٠ لقمان الحكيم ، أيهـا الغبي، هتف بتلميذه وهو يعالج الورم: عليك بالنار يا حمار ٠٠ اكو ٠٠ احرق ، الحق الاصل ٠

قال ديمتريو متوسلا : « أعد علي ما قلت يا توأمي العزيز ٠٠ أنا لا أفهم ٠٠ أنا في حال لا تسمح لي بأن أفهم ٠٠ أسمع ولا أفهم ، فترفق بي ، وقل لي ، ماذا أفعل ؟ أين الاصل وأين الفرع ، وما شأن حكيمك الفاني فيما انا فيه من بلاء ؟ »

تحركت الورقة ، أمامه ، وند عنها صوت يقول : « أنا هو الفرع ! » وخشخشت ورقة ما ، في رأسه ، وند عنها صوت يقول : « أنا هو الاصل ! » فنظر ديمتريو الى ديمتريو وتنفس بارتياح، كمن ألقى عن كتفه جبلا من الصوان ٠ وقال متواضعا:

« الآن فهمت •• شكرا •• لقد فهمت •• كان عليّ ، منذ البدء أن أفهم ، ولكن حالي كما ترى ، اعذرني » •

لف الورقة على شكل قلب وأعادها الى مكانها • ماذا ينفع الانسان أن يمحو اذا كان ثمة من يكتب ؟ الدماغ يملي والقلب يملى عليه ، وبدون اصلاح الدماغ لا يمكن اصلاح القلب • تلك بدهية يا ديمتريو ، وأنت مولع بالبدهيات • تأمل كيف فاتك أن تلاحظ مسألة بهذه البساطة ! لا تضيع الوقت ، اترك القلب وعالج الدماغ ، احرق السرطان الذي هناك ، وعندئذ يشفى الاصل ، فتشفى ، بدورها ، الفروع •

نزع طاسة رأسه . وأخرج المخ الهلامي ، اللزج ، فوضعه في صحن أمامه ، وتركه معلقا بالرأس بعرق كالمشيمة • كان يتوقع أن يرى فيه ندبة ما ، بثورا ، ورما ، فيعالجه بمكواة اللحام التي استحضرها • سيبرهن للقمان أنه ليس حمارا مثل تلميذه . وانه يعرف أن يحرق السرطان ويجرؤ على ذلك ، ثم يذهب في اليوم التالي لتعليم تلميذه ، بسلوك كالذي ذهب فيه للمرة الاولى • غير أن مخه كان صحيحا • خاليا من كل أثر • وكان على قلبه أن يكون صحيحا كمخه • هذا قانون الاصل والفرع، وهو قانون منطقي الىدرجة أن اختلاله سيكوناختلالا للكون ونهاية له • ماذا تفعل الآن يا ديمتريو ؟ حذار أن تعبث

بمخك • قلّبه ، هكذا ، بلطف ، بتؤدة • افعل ذلك مرة ، ومرة، وثالثة • يئست؟ اذن أعده الى مكانه، وامض صباحا كما رجعت مساء ، حاملا تعاستك مرسومة بحبر لا يمحى • لا تقل بعد اليوم لا يمكن • • كل شيء ممكن حين نريده أن يكون ممكنا •

صاح ديمتريو بديمتريو : «ولكنني لا أريد، قلت لك مئة مرة ، لماذا لا تصدقني ؟ لقد تعذبت الليلة بما فيه الكفاية ، لأثبت لك بأنني لا أريد ، أفلا تسمع ما أقول ؟ » •

قال ديمتريو : « بلى ! أسمعك ، ولكنني لا أصدقك • أنت تريد ولا تعرف انك تريد ، هذه هي المشكلة ، حدق في مخك وأخبرني ماذا ترى فيه » •

فعل ذلك ديمتريو فلم ير شيئا •

— آه يا عزيزي ! قال له توأمه • ما كل من له أذنان للسمع يسمع ، وما كل من له عينان يرى • افتح ناظريك جيدا • فقد خلقا لكي يفتحا ، وخوفك أغشى عليهما • اهـدأ • تمالك أعصابك • حين يكون في المخ شيء فلا فائدة من تجاهله • الاجدى أن يعالج ، أن يكوى، أو يستأصل • لقمان ، قبل آلاف السنين، أدرك هذه الحقيقة وعمل بها ، وأنت تجهلها أو تتجاهلها • لا أحد يصاب في مخه ويعالج من أطرافه فيشفى • اذا فسد الرأس

فسد الجسم • عالج رأسك أولا واذا عجزت فاقطعه • هيا • • جرب مرة أخرى •

جرب ديمتريو ولم يفلح • لا شيء في المخ • ومع ذلك غدا واثقا أن فيه شيئا • قال بتسليم :

ـ أنا لا أجد شيئا في مخي • فشلت في العثور على هذا الشيء، وبحاجة الى من يدلني عليه ، فهل تفعل ؟

قال ديمتريو الآخر : أن أدلك عليه فهذا بسيط • أحسب أنك تتكلم بشكل معقول الآن • يبقى أن العلة لا تزول بمجرد الاهتداء اليها • ولقد هديتك منذ البدء الى علتك ، بل انك تعرفها بنفسك وتتجاهلها ، تكابر في أمرها ، فأي أحمق أنت ؟

هز ديمتريو رأسه موافقا • غدا أحمق في نظر نفسه • هو مضيع ومعطل عن مواجهة شؤونه ومباشرتها • وهذه الليلة ، بالنسبة لعمره كله ، جديدة ورهيبة • ظنه أن عالمه الداخلي جلي ، نقي ، كغرفة مشمسة ، كحديقة حسنة التنسيق ، وما صدمه وأوقعه في هذا الاضطراب ، ان هذا العالم مليء بالكهوف والسراديب ، وانه يجوس خلل ظلمات ، فكيف حدث ولم يفطن الى ذلك ؟ كان عليه ، في أعوامه الطوال، أن يفتح رأسه ويعرض خلاياه للشمس •

ــ حسنا ــ قال ــ أنا مستعد يا توأمي ، فأخبرني أين هي العلة في مخي •

ــ أنا لم أقل ان في رأسك علة •

ــ طيب ، سرطان ، ورم ، تشوه •

ــ لا شيء من ذلك ••

ــ وماذا هناك اذن ؟

ــ انظر ••

كانت على الجهة المقابلة من المخ ، شفتان تبتسمان فصاح ديمتريو : « يا الهي ! ماذا أرى ؟ ما ذنبي لديك ؟ ولماذا ، اذن ، أعذب نفسي ؟ » وباندفاعة مجنون ، رفع قبضتيه وأهوى بهما على المرآة ، ليتخلص من السخرية القاتلة في الوجه المقابل • عندئذ حدث ارتطام ضج له البيت كله ، وتناثرت شظايا الزجاج مفرقعة على أرض الغرفة ، وانبجس من اصابعه وراحتيـه سائل مشع ونفر من وجهه وعنقه وصدره وراح يتساقط قطرات على الطاولة والسرير والارض ، وأخذت القطـرات تتفتـح ابتسامات كالشموس الصغيرة ، تشع فتبهر عينيه ، وكلما حاول أن يطفيء احداها ، تناثر السائل فتفتحت عشرات الشموس من عشرات النقط ، حتى حاصرته مـن كل جهـة ، وتداخلت اذ

تكاثرت ، وتحولت الى لهب شمسي غطى ما حوله وأنشأ يتدفق كالماء في قاع سفينة تغرق ، ويتصاعد ويغمر جسمه •

هتف ديمتريو بديمتريو :

ـ يا توأمي يا صديقي •• أنا أحترق •• أغوص في اللهب وأحترق ، انقذني !

وكعادته ، قهقه الآخر ساخرا ولم يفعل لأجله شيئا • عاد يصرخ به :

ـ أيها المسكين •• أنفقت عمرك في طلب هذا الشيء ، فلما صار لك خفته ، وكذلك يفعل العاجزون ، يحبون ويخافون الحب ، يتكلمون على البركان ، ويضعون أصابعهم في آذانهم اذ يحدث ، ويشتهون العاصفة ، فاذا اقتربت ناحوا كطيور الزمج •• أنت منافق مثل تاو ، ذلك الذي كان يحب التنين ، ويملأ بيته بصوره ، فلما خرج التنين من الصورة ، ولول واستغاث ، واستنجد بخدمه لقتله ••• بدمعك ، على أنين الكمان ، كنت تسقي شجرتك ، فلما اخضرت خفت اخضرارها •• خفت هلاكك فيها •

ـ ولكنني أهلك •• أنا الآن أهلك ••

ـ وستظل تهلك •• ستحترق كلك •• هاك اللهب يحاصرك •• هاهو على رأسك ، في الجانب الأيسر من صدرك ، فوق

كتفيك ، تحت قدميك ، يغمر قدميك ، يغمر ساقيك .. اهرب .. اهرب ..

صعد ديمتريو الى السرير فتصاعد اللهب السائل وأغرق السرير . قفـز الى المكتب فاشرأب اللهب اليـه . لم تبق الا الخزانة . فارتقى سطحها ، واذ غرقت بدورها تعلق بالثريا ، وتطوحت قدماه كمشنوق ، وتشنجتا الى أعلى ، في محاولة مستميتة للنجاة ، ولكن ألسنة اللهب أدركته . فأطلق صيحة استغاثة وهوى ، ثم قفز ، بكل قوته المتبقية ، نحو الباب .. فتحه وفر هاربا ، تتبعه طاسة رأسه ، وقطرات الدم المتناثرة ، والشموس المتفتحة ، والسائل اللهبي . جعل يعدو وهي في أثره وطفق يصيح ، ويبكي ، ويستجير ، ولكن أحدا في الشارع ، والمدينة ، والمدن الاخرى ، لم يسمعه ، ولم يأت لمساعدته .

ظل يعدو هكذا أياما . واذ كـان على أحـد المنعطفات ، واجهته مرآة مما يوضع لتجنب اصطدام السيارات ، فرأى صورته فيها ، رأى ديمتريو الآخر ينظر اليه شامتـا ساخـرا كعادته ، فاندفع نحوه هاتفا :

ـ أنقذني ! أنقذني !

وضج الفضاء بقهقهة كالرعد ، وسمع صوتا كالنذير :

ـ أيها الابله ٠٠ أين المفر ؟ وكيف تهرب بذاتـك مـن ذاتك ؟٠٠ أنت تشتعل من الداخل ، ومن الداخل تنطفىء ٠٠ عد الى غرفتك ، وأقلع عن المحاولة ٠٠دع الابتسامة في صفحتك فقد ارتسمت وانتهى الامر ٠ ارتسمت لأنك أردتها ، وهي باقية لأنك تريدها ، وخوفك منها لن يزيد الا في تأججها ٠٠ أنت تصرخ بشفتيك : « لا يمكن ! » وتضمر في سرك: «يمكن!» ولهذا فلن تتحول قناعتك الىسلوك ، كالذي كان ، قبل أن تكون هي ، قبل أن يكون اللقاء . ولن تعود ورقتك بيضاء ، كما كانت قبل الكتابة عليها ٠

١٩٧١

بطاقة توصية

كان قد مضى على تسريحه أربعون يوما ..

ولم يكن قد عثر على عمل برغم مساعيه وتطوافه ، ولم تصدق وعود الواعدين برغم أن بعضها جدي ، وان نوايا أصحابها ليست سيئة تماما .

كان عليه ، كل مساء ، أن يقول لنفسه : « غدا » . وحين يصير الغد أمسا ، يظل عليه أن يقول لنفسه : «غدا» . وينهض باكرا ليبحث عن عمل جديد وليمني نفسه ب « غد » جديد .

نوري بن فنور ، الساكن في حي الاشرفية في بيروت، والعامل المياوم المسرح من مصلحة الهاتف الآلي، لم يترك بابا الا طرقه . كان يغادر بيته قبل أن يستيقظ أولاده لكي يتجنب نظراتهم

المتسائلة • فهم يلاحظون خيبته كل مساء ، ورجاءه كل صباح ، وينطوون على نفس الخيبة ونفس الرجاء •

ويبدو أنهم ألفوا هذه الحال في أوقات البطالة •• وانطبعت في أذهانهم لوحة رضوان الشهال « في صبيحة العيد » المعلقــة على الجدار • كانت تلك هي اللوحة الوحيدة في البيت ، ولم توضع ثمة للزينة ، فالجدران العارية لا يفكر أحد بتزيينها بلوحة كهذه . وانما وضعها نوري كما توضع الحجة في رقبــة الفرس •• كانت باختصار حجة البيت ، وفيهــا يظهر عامــل يجلس على العتبة في صبيحة عيد ، واضعا كفه على خده ، ومن حوله أولاده ينظرون اليه ، ويعيشون ، مثله ، غربة حقيقية •

الفارق الوحيد أن والدهم لم يكن يضع يده على خده •• أبدا لم يضع يده على خده ، وكانت والدتهم هي التي تفعل ذلك . وهي التي تجلس على العتبة ، ومن حولها صغارها ، بانتظار الوالد الذي ذهب يبحث عن عمل •

وكانت البنت الكبيرة ، المصابة بفقر الدم على الارجح ، تتجنب والدها في أيام بطالته •• لا تريد ، بشعور غامض ، أن تكون شاهدا على قهره في صراعه مع الزمن •• أما الام فلا تقول شيئا ، لانها تعتبر الاشياء كذلك أبا عن جد ، بينما الجدة تلوم ابنها لانه «ينطح الصخر» والايام تعزز رأيها ، وقد جاء تسريحه ،

بعد اضراب فاشل أخيرا ، بمثابة الدليل القاطع على أن نوري « ينطح الصخر » ٠

ونوري لا يصغي الى أمه ، فهو يجد الامور طبيعية جدا : الاضراب الفاشل يعقبه تسريح انتقامي ٠ وقد وفر على نفسه التعب فلم يتعلل بالعودة الى العمل ، بل وكّل محاميا للحصول على التعويض، ووقع تعهدا بدفع خمسة وعشرين بالمئة أتعابا، اضافة الىحسميات الضرائبوالرسوم ومصاريف المحكمة، وقد أدرك أن التعويض ـ حتى اذا حصل عليه بعد شهور ـ لن يصل الى يده الا حسكا ، وهو لا يفي الا بجزء من ديونه ، وكل قيمته، في الوقت الحاضر ، أنه ضمانة للدائنين الذين يعرفون ذلك ، وقد ارتضوا ، اشفاقا أو أملا ، بالاستمرار في تسليم العائلة أقل كمية من الخبز ، مع رفض الطلبات الاخرى ، أو القبول بالضروري جدا منها ، وحتى الضروري صار في أمره خلاف : فالتبغ اعتبره حانوتي من الكماليات ، بينما تساهل حانوتي آخر فلم يخرجه نهائيا من قائمة الضروريات ٠٠ وصار على نوري أن يدخن وفقا لاجتهادات الدائنين.وقد يمر يوم أو يومان فلا يدخن أبدا ٠٠ أما النقود فلا أثر لها ، وهو مضطر ، شأنه أيام البطالة ، أن يذهب ماشيا الى البرج ٠

وهاهو يمشي ٠٠ نهض باكرا ، وسار مجدا ٠٠ لم ينتظر

قهوة الصباح ، فهذه أيضا صارت من الكماليات ، والتدخين مع القهوة صباحا ، يعادل وجبة كاملة بالنسبة لمدمن مثله ، ولكن القهوة غير موجودة ، وكذلك الدخان ، والامل ، وهو كل رأسماله ، في بطاقة التوصية التي يحملها •

شقيق زوجته هو الذي جاءه ببطاقة التوصية •• رفضها بادىء الامر ، وتحت الالحاح وضغط الحاجة ، وضعها في جيبه وقصد السراي منتظرا مجيء الوزير •• مكث من الصباح حتى انتهاء الدوام ولم يحضر •• قيل له انه في البرلمان • وفي اليوم التالي ذهب أيضا وانتظر ، ووجد غيره ينتظر • المراجعون كثيرون وبطاقات التوصية كثيرة •• حبر على ورق ، ولكن لا بد منها •• لا بد من الواسطة ، والوسطاء كثيرون ، ففي كل منطقة وجهاء وأدعياء وسماسرة ، وكل هؤلاء يعطون بطاقات توصية باستمرار ، يعطونها دينا على حساب الانتخابات المقبلة ، أو ببدل عيني من ثمر الارض او الجسد ، ولقاء المال ، فالامر في نهاية المساومة ، يتوقف على العمل المطلوب والعقدة المراد حلها •• وكانت البطاقة التي يحملها نوري مسحوبة على الانتخابات القادمة ، ولأن هذه الانتخابات بعيدة ، فاحتمال نجاح التوصية بعيد ، وهذا ما يعرفه ، وقد قاله لزوجه التي أصرت على أن أخاها من « زلم » الوزير ، وانه يعتمد عليه في

المنطقة ، ويكفي أن يقرأ ما في البطاقة حتى يتذكره ، فهو من أكبر الوجهاء هناك ، وكلمته لا تصير اثنتين في السراي ٠

مطر ربيعي يتساقط رذاذا ٠٠ غيمة وتزول ، بل ان بقاءها مطلوب لتلوين لوحة الربيع ٠ ٠والجهمة التي تنشرها شحن جديد للشوق الى الصحو والشمس ، ونوري ، فيما مضى كان يحب هذا الرذاذ ، ويسعد به منذ طفولته ، ولم يضق بالرذاذ اليوم الا لأنه بلل ثيابه المضطر الى البقاء فيها حتى العودة الى البيت ٠

الماشي على قدميه ، من الاشرفية الى البرج ، لا يسلك طريق السيارات ولا الترام كلها ٠٠٠ يختصرها بنزول بعض الادراج الحجرية ٠ وكذلك فعل نوري ، بل انه دخل بعض الازقة زيادة في اختصار الطريق ، ومع ذلك كله سار وقتا طويلا وتبلل بشكل ظاهر ، والمنديل الذي وقى به رأسه تنقع تماما ، فعصره ومسح به وجهه ويديه ، ثم عصره ووضعه في جيبه ، ودخل السراي بين جهمتين : النفس والجو ٠

وكالبائعين والشحاذين الذين تصبح لهم ، بحكم المداومة والخبرة ، مواقف معلومة ، تصبح للمراجعين المدمنين مواقف معروفة عند أبواب المكاتب وادراج السراي ٠٠ أكثرهم حظا ـ

وربما اوفرهم قوة ـ من له موقف أدنى الى الباب •• واحتلال المواقف رهن بالحضور المبكر ، وكذلك بالمحافظة عليها •

وكالمسافرين في طريق بعيد ، يتعارف المراجعون ويتبادلون الاخبار، ويتطارحون الشكوى ، ويشتمون الدنيا، وقد يشتمون الشخص الذي يراجعونه ••

وفي طريقه الى السراي ، اعتزم نوري أن يرابط أمام باب الوزير ، فلما وصل وجد مراجعين آخرين قد رابطوا قبله ، وعليه أن يقف بعيدا كيلا يسد الطريق وينتهره الحجّاب • وبمضي الوقت أخذ عدد حملة التوصيات يزداد ، حتى تشكل جمهور منهم • وقد وقفوا أول الامر وقفة طبيعية ، يتحادثون أو يدخنون ، ثم تعبوا من الوقوف فاستندوا الى الاعمدة والجدران ، ثم قرفصوا عند أقدامها ، وظل بعضهم يذهب ويجيء ••

وبحلول الظهر ازداد توتر الجميع • فاذا لم يأت الوزير اليوم ، وجب عليهم أن يعودوا غدا ، بنفس التفكير ونفس القلق • لقد كان الامل ، في الصباح ، يعمر قلوبهم ، ومع تقدم النهار غاض ، ودب اليأس وتصاعد •

وفجأة حدثت حركة في الرواق • فتح باب المكتب فهرع

اليه المنتظرون ، وتدافعوا نحو الحاجب ، واستعد كل منهم ، شاهرا كتاب التوصية، أو متحسسا له في جيبه ، وانجلى الزحام عن لا شيء ٠٠٠ أعطى الحاجب شخصا معاملته وأغلق الباب ، طالبا من المزدحمين أن ينتظروا !

قال رجل هرم مغضبا :

ـ الى متى الانتظار ؟ هذا يومي العاشر ٠٠ لو كنت من بيروت لهان الامر ، أنا من الجبل ، ولا مال عندي ٠٠ بعت ما فوقي وتحتي والقضية في موضعها، أحضر من الصباح وأنصرف بعد الدوام ، والنتيجة فالصو ٠

أجاب كهل آخر :

ـ صاحب الحاجة عبد يا ابني ٠

ـ ولكني دفعت !

ـ الدفع وحده لا يكفي ٠٠ لا بد من طولة البال ٠

ـ ومن أين تأكل عائلتي ؟

ـ الله لا يقطع بها ٠

فلوى الرجل عنقه وقال كمن يخاطب نفسه :

ـ آمنت بالله •• ولكن عائلتي جائعة ، وحذائي تقطع •• يا هو لمن اشتكي ؟ •

ران صمت على الحاضرين فأعقبه هذا السؤال :

ـ وماذا قال لك الوزير ؟

ـ ومن رأى الوزير ؟ أرابط من الصباح الى المساء ، ولا آدري متى يأتي ومتى يذهب •

قال واحد من المراجعين :

ـ مكاتب الوزراء لها أبواب خلفية •

فعلق مراجع مزمن :

ـ وأبواب سحرية أيضا •• اسألوني أنا •• اذا انتظرت على الباب الخلفي قالوا خرج من الباب الامامي ، واذا انتظرت على الباب الامامي قالوا خرج من الباب الخلفي •• يلعبون بي مثل الطابة •• مصيبة !

ـ الوزير موجود اليوم •• لا تقطعوا الامل •

ـ رؤية الوزير لا تحمل المن والسلوى •• تعطيه ، بعد طول الانتظار ، البطاقة ، فيقول لك : « تعال غدا » وتأتي في

اليوم التالي فلا تجده ، وتنتظر من جديد ·· تقطع المشى مئات المرات ، تجلس على الدرج ، تقف حتى تزهق روحك ، تتعب ساقاك فترتكز عليهما بالتناوب، تفقد صبرك وقواك حتى تكاد تنهار ، وبعد هذا كله ، واذا استطعت أن تكلمه ، يقول لك : « اذهب الى فلان» وتذهب الى فلان فيحيلك الى علان، وعلان الى علان ، وتيأس فتترك القضية ، أو تعود لرؤيته من جديد ·· هذه ثالث مرة أراه ، وظني أنها ليست الاخيرة ·· تفو على هذا الزمن ··· صاحب الحاجة عبد من حق !

انكمش نوري في مكانه دون أن يفتح فمه ·· استشعر اهانة بالغة وهو يسمع عبارة « صاحب الحاجة عبد » ·· انه ليس حرا ولا فائدة في الانكار ، ولا في التساؤل كيف ومتى استعبد ·· هو يعرف السبب . ومن أجله أضرب وسرح ، ومن أجله يجب أن ينظم اضراب آخر ، أو يكافح بطريقة أخرى ··

وفيما نوري يفكر ، حدث مد وجزر بين المراجعين ، وعلت الضجة ، وتراكض الناس ، وتسمر هو في مكانه ·· لم يستطع مجاراة الآخرين في حركاتهم وتوسلاتهم التي تتنافى مع الشكاوى والشتائم التي أرسلوها منذ قليل · تحول كل ما فيهم الى نداءات استعطاف وكلمات نفاق وتذلل ،وارتفعت ايديهم

بالرسائل وبطاقات التوصية والمعاملات ، فتشكل ما يشبه الاجمة من الورق الابيض فوق الرؤوس .

كان الوزير المستعجل قد خرج من مكتبه ، يتقدمه الشرطي المرافق ويلحق به الحاجب ، وكان ، وهو يسير ، يكلم هذا ويجيب على تملق ذاك ، ويعطي وعودا على الجانبين . ويعطيها الى وراء أيضا ، والشرطي المرافق يفتح له الطريق ، والحاجب يلفت نظره الى بعض المراجعين . والموكب يتقدم نحو درج السراي الخارجي . وأجمة الاوراق البيضاء تتحرك . والتدافع يشتد ... حتى اذا بدأ الوزير يهبط الدرج ، ولم يبق من أمل في الوصول اليه الا ببلوغ سيارته والمرابطة حولها ، بادر بعضهم الى قفز الدرجات ، وانتهوا الى السيارة فتحلقوا حولها ، وفتح السائق الباب ، فاندفع الوزير الى جوف السيارة وانزوى في طرف المقعد الخلفي ، فامتدت الرؤوس والايدي من النوافذ. وعاد السائق الى مكانه ، وراح الشرطي المرافق يستحثه على الانطلاق، ودار المحرك والمراجعون يحيطون بالسيارة، والوزير يرد من الداخل : « غدا .. طيب .. سنرى .. فهمت . » والحاجب ينتهر المتجمعين ، والمرافق يأمر السائق : « امش ! خلصنا ! » .

ومشى السائق بصعوبة .. كان عليه أن يشق طريقه بين

الاجسام ، ومضت السيارة و بعضهم لايزال معلقا بها ، وأسرعت فركض المتعلقون بالنوافذ . ثم تراخت الايدي ، وارتد المراجعون واحدا اثر آخر ، وتفرق الجمع ، فسار كل في الاتجاه الذي هو موليه •

كانت بطاقة التوصية لا تزال في يد نوري •• هو أيضا تحرك مع الموكب ، من باب المكتب الى باب السيارة ••• تحرك صامتا ، كئيبا ، كأنه يخوّض في مستنقع من القرف والكراهية، وقد قرر ، وهو ينفصل عن الموكب الخائب ، ألا يعود في اليوم التالي ، ولا في الذي بعده •

ونظر في بطاقة التوصية والسيارة تبتعد ، ورأى الوجوه وقد غاض أملها وعاودتها تكشيرة السخط، وتذكر قولة القائل: « صاحب الحاجة عبد » • وأبصر عبيد الحاجة وهم يتفرقون ويدبون كالنمل على أرصفة الشوارع . فامتلأ بالغضب عليهم وعلى نفسه وعلى بطاقة التوصية ••

واتجه بهدوء نحو صندوق القمامة ••

١٩٦٩

رسالة من أمي

ولدي الحبيب حنا ، من أمك مريانا ، وكاتبة الأسطر بنت أختك هيفاء ، تقبل يديك وتقول لك يا خالي لا تؤاخذني على هذا الخط وهذه الديباجة ، لان ستي تضربني اذا تفاصحت وتقول: « خالك لا يحب التنويق »(١) ، وقد أقفلت الباب حتى لا أهرب ، وجدي الذي يشرب قال لي اكتبي : « يا باطنة كوني وسيعة تنالي المنى(٢) » فصاحت به ستي : لا تدخل قصة الزير في المكتوب ، الولد حفظ « المجراوية » من كثرة ما رددتها .

صح ، كتبت هذا الكلام لبينما فرغت ستي من التفتيش تحت فراشها ، وجاءت بجرائد ومجلات ورسائل منك ، وقالت وهي تشير الى جريدة فيها صورتك وأنت تضع يدك على خدك:

---

(١) نوق الشيء صففه ونمقه وتأنق فيه .

(٢) بيت منظوم من قصة الزير سالم ، والباطنة هي السريرة ، والمعنى اذا صبر الانسان ظفر ، وفي هذا التمني دعوة للصبر على المكاره والصمود لهـا .

لماذا خالك متكدر ؟ قلت : هذا « بوز »(١) يا ستي ! قالت : سدي « بوزك »(٢) يامقصوفة العمر ، خالك متكدر أو صحته منحرفة ، أنت لا تعرفين أكثر مني . لذلك نبدأ قولنا بالسؤال عن صحته وسلامته وشغله وعائلته ، وبعد الديباجة أقول له كلمتين فيهما نصيحة من أم لولدها .

قلت لستي : ولماذا الديباجة ؟ فقالت : الديباجة ضرورية ، أبوك ، وديع ، سافر مرة الى الشام وكتب ديباجة حلوة لجدك ، انقلي منها بعض الجمل لخالك .

(ملاحظة من بنت أختك : سمعت أن والدي نقل الديباجة من كتاب « القول اللبيب في انشاء المكاتيب » ووضع اسم جدي مكان الفراغ . الرسالة تحفظها ستي في صندوق جهازها مع صورتك الشمسية وهي الى جانبك بمنديلها « الاويا »)(٣) .

حضرة العم العزيز والذهب الابريز ، حفظه المولى وأبقاه امين يا رب العالمين .

بعد لثم يديكم الطاهرتين ، وتقديم السلام الى امرأة عمي .

(١) « بوز Pose » الوضع الذي يأخذه الانسان عند التقاط صورته .
(٢) « بوز » الحلق : مخرج الكلام .
(٣) « الاويا » : تخاريم على شكل زهور صغيرة مشغولة بالابرة ، كانت توضع على حوافي مناديل الرأس للنساء .

الدرة المصونة والجوهرة المكنونة . نفيدكم أننا وصلنا الى بلاد الشام ، وسألنا عن ابن عمنا ، فدلونا على « الكزيتة »(١) التي يعمل فيها ، وصعدنا الى عنده في الطابق الثالث . فوجدناه في وضع يرفع الرأس ، له مكتب وكرسي مثل الخواجات ، وينادونه يا أستاذ ، ويتكلم بالتلفون مثل الافندية ، ويكتب على اوراق نقلا عن الراديو ، والناس يدخلون عليه ويخرجون . فقلت في نفسي: أين عينيك يا امرأة عمي ترى ابنك الذي كان في بلدنا حلاقا على باب القشلة(٢) ، فصار في الشام أكابر(٣) • وتذكرت يوم فتحنا له الدكان ، وأخذنا المراية(٤) من عندنا والكرسي من بيت عمه ، وبقيت مشكلة البنطلون ، لأن الزبائن ضحكوا عليه ، وقالوا هذا الولد بالبنطلون القصير راح يتعلم الحلاقة بذقننا ، ورفضوا الحلاقة عنده ، فجاء الى البيت مكسور الخاطر ، واشتكى من هذه الجهة حتى جرح قلبي ، فحملت بنطلوني العتيق الى جواد الخطاط ، الخياط في البازار ، فقلبه له ورتاه(٥) من القعدة والاكمام ، وألبسناه اياه بعد أن وضعنا بدل الزنار تكة(٦) عمي

---

(١) الكزيتة : الجريدة ، من كلمة Gazeta الاجنبية •
(٢) القشلة : الثكنة •
(٣) أكابر : كبار ، والمقصود أصحاب المقام •
(٤) المراية : المرآة •
(٥) رتاه : رفاه ، يرفو الجورب أي يرتيه •
(٦) التكة : البريم القماشي في السروال لربطه حول الخصر •

حتى لا يقشط(١) من خصره الذي يدخل فيه المحبس(٢) ٠٠٠
تذكرت هذه الحكاية وأنا أنظر الى ابن عمنا على المكتب ولا
أصدق عيني ، وقلت : الله المعطي ، وان شاء الله لا يبطر وينسى
أصله وفصله مثل غيره ، لأن ابن آدم نسَّاء ، وبعد أخذ ورد
معه، تبين لي أن الولد مازال على حاله، لم تفسده النعمة، وذهبنا
من هناك الى مطعم الصفا عند جسر فيكتوريا ، وأكرمنا غاية
الاكرام ، وفي المساء سهرنا في « التاترو »(٣) • وفي اليوم التالي
رحنا الى سوق الحميدية ، وأسواق كثيرة . صدق من قال « الشام
شامة وعلى خد الدهر علامة » ، ومع هذا كله اشتقت اليكم ،
وأردت الرجوع فمنعني ، وأبقاني ليزيد في اكرامي ، وأنا
أكتب هذه السطور لأطمئنكم وأسأل خاطركم ، ولا يمكنني
وصف كل شيء في مكتوب واحد، والافضل أن أخبركم بالتفصيل
عند رجوعي . وفي الختام لكم مني ألف سلام ، وهذا ما جرى
معي في بلاد العرب ٠٠٠ ودمتم » ٠

صح ، قرأت المكتوب لستي وأفهمتها أنه لا توجد فيه جمل
حلوة لأنقلها ، ولكن ستي نعرتني فبكيت . وفتح جدي النائم

---

(١) يقشط : يزحل ٠
(٢) المحبس : خاتم الخطوبة أو الزواج ٠
(٣) التاترو : التياترو ، المسرح ، الملهى ٠

عينيه وقال : « يا باطنة كوني وسيعة ... » فغضبت ستي وقالت : بدل مساعدتي على كتابة الديباجة تنام وتفلقنا بباطنتك !؟. فقال جدي ملاطفا : يا حرمة ، البنت طفلة ، وما عندها خلق للتطويل، قولي أفكارك بكلمتين وينتهي الامر . فقالت ستي اذن اكتبي كما أقول لك ، بدون زيادة ولا نقصان وبدون تنويق .

البارحة جاءني سابا بن أم مطانيوس بالجريدة التي فيها صورتك ويدك على خدك . وكما قلت لك انشغل بالي ، ولكن انشغل بالي أكثر من الكلام الذي قلته . أنا لا أفهم بالنحوي ، ولكن سابا ، وهو ابن مدرسة ، قرأ لي بالجريدة وفسرها . تقول أمي أدخلتني المدرسة لأفك الحرف وهذا صحيح ، ومن حرق قلبي على نفسي أنا الجاهلة نذرت تعليمك ، وأخبرك بهذه المناسبة أن ١٤ سنة مرت ولا خبر أو مخبر من عند عمك البعيد، ولا أحد في الحارة يكتب لنا كلمتين . وأخيرا عزمت سلوم النجار على سفرة(١) طويلة عريضة . وقام كتب الديباجة في تلك الليلة ووعد في اليوم الثاني أن يبيضها ، وهذا وجه الضيف(٢) . وبعد سنة حملت الديباجة الى عبد الله صباغ ، الله يرحمه ، فما

(١) سفرة : مائدة .
(٢) هذا وجه الضيف : ذهب ولم يرجع ــ توارى .

استطاع أن يفكها ، ويوم مرضت بالحمّى وأنت صغير ، وطلبت المدرسة ورقة من يد والدك ، ما وجدنا من يكتبها ، فرحت لعند المعلم نعيم ـ وهو كاهن الآن في أبرشية(١) الشام ، رجائي أن تمر عليه وتقبل يده وتلثم ذيل حبرته(٢) نيابة عني ، فتفضل وكتب أنك مرضت بالتفوئيد ، وهذا كله جرى ، وأنت صادق، ولكن ما الداعي لذكر والدك بالسوء ؟ قلت انه لم يفكر بأمر المدرسة وانه في اجازة دائمة من التفكير، وسمع هذا الكلام بأذنه فقال : « يا باطنة كوني وسيعة ٠٠٠ ! » وأنا انزعجت عنه ، وحتى لو كان يسكر ، ويضربني ولا يصلي ، فهو خيمة البيت ، منديل على راسي ، ولا يجوز أن تقول انه لا يفكر ، فالذي لا يفكر حمار ٠ (ملاحظة من بنت أختك : سمع جدي هذه الكلمة فصاح : لا تكتبي هذا العلاك يا بنت ! لكن ستي قالت : لا تزعل يا ابن الاوادم ، أنا أدافع عنك وأنبه الولد حتى يعرف كيف يتكلم في الجرايد ، فغضب جدي وقال: دينك على دين الجرايد ! وعندئذ قالت ستي : اذن اقلبي هذه الصفحة ، قلبي على زوجي وقلب زوجي على الحجر !) ٠

صح ، هنا طلبت ستي أن أقرأ لها الجريدة ، حتى تتذكر

(١) آبرشية : مطرانية ـ مقر المطران ٠
(٢) حبرة الكاهن : ثوبه الكهنوتي ٠

المسألة الثانية. فلما وصلت الى جواب السؤال الثاني ، أوقفتني وقالت : عندك ! كل المكتوب لأجل هذا ... ونصت علي :

جوابك على هذا السؤال جعل الفأر يلعب بعب بيت عمك يا ابني ، سألوك عن أهم شيء في حياتك فقلت المرأة وقضية المستقبل ، وأنا فهمت أن المرأة هي المرأة ، يعني زوجتك ، وأولاد الحلال كثار، حملوا الجريدة وراحوا لبيت عمك وقالوا: نعيما ، صهركم في الشام عاشق ! وبيت عمك عاتبوني . وقالوا ما كان الامل من ابنك تطلع منه هذه المطاليع ، فقلت لهم ابني بعيد عن هذه الافعال ، وهو يقصد زوجته ، أم أولاده ، لكن ابن عمك الفصيح قال : لا يا أم حنا ، المرأة غير المرأة .. المرأة هنا اسم جنس (وكتب لي هذه العبارة في ورقة) ومعناها كل امرأة، فلطمت على خدي لهذا الخبر ، وقلت ما معقول أبدا ، وصار الاتفاق أن نسأل الخوري بعد صلاة الاحد ، وأنا أكتب اليك هذا المكتوب حتى أعرف الحقيقة ، لأني لا أصدق ولو رأيت بعيني . فابني الذي أعقل من البنت لا تطرف عينه على غير زوجته .

وأما قضية المستقبل فهذه جيدة . عندما يقولون للانسان ، الله يستر آخرتك ، يعني يجعل آخرتك أفضل . وآخرة الانسان مستقبله ، وكذلك آخرة الوطن ، ووطننا من يوم فتحت عيوني

على الدنيا يتعذب يا حسرتي ! أيام العثمانيين ذقنا الامرين ، وكانت أيام الفرنسيين ألعن ، ومن اللواء هاجرنا على يد الاتراك ، ومن فلسطين على يد اليهود ، والنتيجة ؟ الى أين ؟ في الانجيل أن من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ (ملاحظة : هنا رسمت ستي اشارة الصليب وأضافت) : واذن ، فطالما أخذوا أراضينا بالسيف فلا بد أن نأخذها بالسيف ، وبيتنا الذي في اسكندرونة ، وقبر أختك ، وبيوت اللاجئين في فلسطين وأراضيهم ؟ في هذه معك حق ، ويا ليتك لم تذكر المرأة ، فالنسوان سبب كل علة ، وأبوك المغرم بقصة الزير يقول :

من النسوان بالك ثم بالك ولو قالوا نزلنا من السما(١)

واذا كان أبوك يحفظ كلام الزير ولا ينتفع به ، فاحفظه أنت وانتفع به ، أي اسمع كلام الواعظ ولا تفعل أفعاله كما تقول جارتنا ، وهذا ما لزم عرفناكم والسلام .

صح ، قرأت المكتوب لستي فصارت تضحك ، وأشارت بأصبعها الى مكان البياض وقالت: اكتبي له هنا « الصيت الحسن

(١) بيت من قصة الزير سالم . وصية الزير الى الجرو ابن أخيه كليب ، بسبب ما ذاق الزير من أذى على يد الجليلة ، امرأة كليب ، وشقيقة جساس قاتل أبيه .

أفضل من المال المجموع » ، وهنا « طاعة الوالدين من طاعة الله »
وهنا « كن مع الحق ولا تبال » فقلت يا ستي : هذا غير ضروري
فنعرتني وقالت : املئي الفراغات يا بنت • ثم جاءت في السهرة
ملهوفة وقالت : اقرؤوا لي هذه الجريدة ، لأن جارنا قال لي :
الصحف في الشام تأخذ وتعطي مع ابنك هذه الايام ، ناس معه
وناس عليه وقال ان ماسح أحذية دافع عنه ، وكتب في هذه
الجريدة : حنا كان أجير حلاق وانا ماسح أحذية ••• وبعد أن
قرأت لها الخبر أعطتني ربع ليرة ، وطلبت مني أن أكتب لهـا
كم كلمة زيادة ، فقلت لها تفضلي نصي علي •

ياولدي الحبيب! ماهذه الاخبار التي أسمعها عنك ؟ لاتأخذ
وتعط كثيرا مع الناس ، المثل يقول « يا جبل ما يهزك ريح » •
أنا لا أعرف ماذا تكتب في القصص، ولكن الناس يحبون قصصك
ويقولون انهـا قصصهم ويدعون لك بطول العمر ، وهـذا
يكفي ، فالعود ، يا ابني ، لا يحن عليه غير قشره ، وأنت حن
على الجميع ، حب الجميع ، وخاصة الفقراء ، ملح الارض •
واذا كنت في ضيق أو كدر ارجع الى أمك وحط رأسك على
صدرها • من عشرين سنة وأنت بعيد عن البيت ، مرة في بلاد
« بره » ومرة في بلاد « جوه » ولا أسمع أخبارك الا من الناس
والجرايد ، ولا أرى صورتك الا فيها ، وأمس ندهتني جارتنا

من الشباك : يا أم حنا ! طلع ابنك في التلفزيون، وركضت على الدرج ، صرت أدب أنا المرأة العجوز في السبعين ، على يدي ورجلي ، فلما وصلت لم أجدك ، وانتظرت حتى آخر السهرة فلم تطلع ، فالله يرضى عليك يا ابني ، اذا كنت راح تطلع مرة ثانية طوّل بالك حتى ألحق وأراك !

كذلك أخبرك أن المختار(١) عاتب عليك ، لأنك قلت عن بنته في القصة ان رجليها مثل قصب الذرة، هذا عيب ولايجوز، واذا بارت البنت تكون خطيئتها في رقبتك ، ومريم السودا(٢) تحبك ، فلماذا بشعتها في عيني زوجها نايف الفحل(٣) ؟ وأمس دق الباب رجل طويل أحمر العينين ، اسمه خليل العريان(٤) وسألني عنك ، فقلت له ابني في بلاد الشام ، فقال : ابنك كتب عني ، وأنا عندي قصص كثيرة مفيدة له ، فحين يأتي ابعثي خلفي • وأعطاني عنوانه وصورته وهو شاب بشاربين مثل عنتر ، من أربعين سنة . فأخذتها وحفظتها مع العنوان لحين حضورك• وابن العجان يقول ان الطروسي(٥) جده، وكل صياد وبحار يقول انه قريبه ، وأنا محتارة ! ومن طرف المحافظ والدعاية جاء رجال وسألوا عنك ، ومعهم رجل غريب يتكلم

(١و٢و٣و٤و٥) أسماء الشخصيات في روايتي « المصابيح الزرق » و « الشراع والعاصفة » •

العربية بشكل أعوج ، قال أنه يترجم قصتك ، ورأى البيت وسلم على والدك وعلي ، وأنا كنت في ثياب البيت وذبت مـن الخجل ، لماذا لم تخبرنا سلفا ؟ وهل جعلتنا فرجة في آخر عمرنا يا ولدي ؟ واحزر من دلهم على بيتنا ؟ « جيغا » المجنون ، وكان عندنا فارس المسطول ، ونحن نقول له « فارس الحمصي » فقال : بكرا ينشرونكم في الجرايد ، فيا خجلتنا من الجيران اذا فعلوا ٠

نختم بالسلام الى الجميع ، فردا فردا ، وخاصة الى صديقك الدكتور الذي زارنا في الصيف ، وكلف خاطره بمعالجة الحارة كلها ، والحمد لله كانت يده خفيفة على المرضى ، فلم يمت منهم سوى كاترين العرجا ، وجارنا شحادة ، وزريق الفحام ، وبنت أبو حسين ، وقالوا في الحارة بعد سفره انه دكتور بارع ، لأن الدواء الذي وصفه لرمزة بنت مخول غير موجود في كل صيدليات البلد ، وحتى الذين ماتوا ، ماتوا مرتاحين ، لأنه لم يأخذ منهم أجرة ، ولأنه « دسدسهم »(١) بوجدان ، وأنا شفيت على يده والحمد لله ، وآمنت به ، والمثل يقول : « آمن بالحجر تبرأ »

(١) الدسوسة أو الدسدسة ، حركة أنامل الطبيب وهو يكشف على المريض ويدس أنحاء جسمه ، وكلما زاد الطبيب منها كان بارعا وصاحب وجدان في نظر الفقراء من المرضى ٠

ومع ذلك اداري حالي ، فلا أقطع البخور والصلاة في شباط ولا آسمح لوالدك بسب الدين طوال هذا الشهر المبارك ، و . . .

صح (ملاحظة من بنت اختك هيفا) يا خالي لا تؤاخذني لأني قطعت مكتوب ستي . رديت لها ربع الليرة واستعفيت . آخ يا خالي كم تعذبني ستي بمكاتيبها وكم تضربني لأجلها . فالرجاء منك أن لا تكثر من المكاتيب ولا تتحدث في الصحف . لأن المصيبة تقع على رأسي ورأس سابا بن أم مطانيوس ، وفارس الحمصي اذا لحقته قبل أن « ينسطل » . فهي تضع المكتوب في صدرها ، وتحمل الجريدة في يدها ، وتدور علينا ، ولا تكتفي بقراءة واحدة ولا اثنتين ، وأنت تعرف أن سمع ستي خفيف ، وعلينا أن نصرخ ، لأن ستي تتقمط بعصبة فوق المنديل ، وتلبس في الشتاء ثلاث تنورات وقميصين وكنزتين وجاكيت ، فتصير مثل الطابة الكبيرة ، وصوتي يضيع ولا يصل الى أذنها . وكل هذا يهون عند كتابة الجواب ، وهذه المصيبة تقع عليّ وحدي .

صح ، توصيك ستي أن تكتب لأم كامل وأبو فهمي برامج اذاعية ، فالحارة كلها تسمعها وتحبها ، وتقول لك : لماذا لا تمثل أنت معهم حتى تسمع صوتك ؟

صح . طلبت ستي من جدي أن ينص لها كلمتين فرفض ، ومن فرحي قمت الى جدي وقبّلته !

صح . في الختام تغني لك ستي هذا الموال :

اكتب المكاتيب ودموع العين تمحيها
وأنا ناظرة الدروب ومالي من يوديها

بالله يا كاتب المكاتيب فسر لي معانيها
وسلّم على الشام وأحباب لنا فيها

واسلم لأمك المشتاقة مريانا

١٩٧١



عبث البق

عندما انتهى ابراهيم من رش مادة الـ ددت حول الحصيرة التي سينام عليها ، راقب بعناية ذلك الخط المستطيل من المادة المبيدة للحشرات الذي سيبيخ به مرقده ، واذ لاحظ فجوة فيه عمد الى سدها ، ثم عمد ، احتياطيا ، الى تكثيف ذلك الحاجز فرش المادة المبيدة مرة ثانية • وبعد ذلك خلع ثيابه ، وأطفأ المصباح ، وتخطى الحاجز فاستلقى على الحصيرة وسط ظلمة الغرفة التي خفت تدريجيا ، وقال في نفسه راضيا عن فعلته : « حسنا ! ظني أن البق اللعين لن يستطيع اختراق الحاجز الذي أقمته من حولي » •

كان الليل في أوله ما يزال ، لكنه مل القعود فآثر النوم ، ومع أن هذا لا يأتي بسهولة فانه راح يحاوره بصبر ليستريح من شعور مبهظ بالوحدة في هذا الكوخ الخشبي الكئيب على سطح الطابق الثالث في حي الزيتونة ببيروت •

لقد فرض عليه أن يتفهم الضرورة التي ألجأته الى السكن هنا وأن يتعزى ، وكان العزاء ضربا من النسيان الصعب ، فتعلم ان يمارسه بنجاح • ان عليه ان يتقبل الواقع بطريقة لا تكرسه بل تحتمله بغية تغييره . وقد فهم ذلك واتخذه سلوكا وعلى أساسه أقام في هذا الكوخ لصاحبته السيدة زكية مالكة البيت بطوابقه الثلاثة : الاول وفيه بعض الحوانيت ، يعمل ابنها حلاقا في أحدها ، والطابق الثاني تؤجره غرفا مفروشة لطلاب الجامعة ، والثالث تسكنه مع زوجها وابنها الحلاق وابنتها العانس وابنتها الاخرى المتزوجة •

ان السيدة زكية تمارس كل شعور السيدة صاحبة الملك ، وفوقه الاحساس بأن البيت الذي ورثت طابقه الارضي عن أهلها قد تطلب منها زهرة عمرها حتى استطاعت بناء طابقيه الآخرين • لكن الذي يطامن من حدة شعورها بالملكية هو وضعها الاقرب الى العوز الدائم ، واضطرارها الى الافادة من كل زاوية في بيتها ، وكذلك اضطرارها الى الشجار ، أو عدم التلاؤم على الاقل ، مع كل ساكنيه ، اما لاختلاف على الاجر ، أو ضيقا بالذين لا يعملون مثل زوجها . أو الذين عليها أن تحتملهم مثل صهرها « عديم الوجدان » •

وحين جاءها ابراهيم يطلب غرفة للايجار ، أعلنته أن ليس

لديها غرف فارغة في الوقت الحاضر . مع الوعد بأن غرفة ستخلى بعد أيام ، يمكنه أن يسكن فيها ، اذا اتفقا على الاجر .

قال ابراهيم :

ـ لكنني لا أستطيع الانتظار ، فليس لي مكان أبيت فيه .

ـ يمكنك أن تنزل في أحد الفنادق لبضعة أيام .

ـ لم أجد غرفة في فندق مناسب .

ـ ستجد اذا بحثت أكثر .. هناك فنادق رخيصة حول البرج .

ـ لا تطيب لي السكنى في مثل هذه الفنادق .. أعصابي لا تحتمل الضجيج ..

ـ والفنادق الاخرى ؟

ـ أسعارها لا تناسبني .

قالت السيدة زكية في نبرة أسف :

ـ لا حيلة في اليد .. اذا لم تنتظر بضعة أيام فلن تحصل

على غرفة عندي . . مع أنني لا أرفض ، بل قل انني أرغب في تأجيرك احدى غرفي .

ساد الصمت دقيقة بينهما ، بدا خلالها كل منهما يفكر في حل ، وكل منهما يخفي الحقيقة عن الآخر .

هو لا يستطيع النزول في الفنادق، لأنهم يطلبون فيها هويته، ولأسباب خاصة به ، لا يريد أن تكون اقامته معروفة من رجال الامن ، وليس ذلك لأنه مطلوب في لبنان ، بل لانه قد يطلب من قبل سورية ، فهو صحفي أغلق حسني الزعيم ، غداة انقلابه عام ١٩٤٩ ، الصحيفة التي يعمل فيها ، وسجن صاحبها ولاحق محرريها ، وهو واحد منهم .

وهي ، السيدة زكية ، تميل الى تأجيره لأنه ليس من فئة الطلاب . ان لديها ابنة للزواج ، وخاطبها قد يكون بين المستأجرين ، ولأمر ما توسمت في ابراهيم خيرا ، ورغبت في أن يسكن لديها لو توفرت الغرفة .

قال ابراهيم في شيء من ضراعة زادت في آمال السيدة زكية وأطمعتها :

— ألا يمكن أن أدبر نفسي عندك خلال أيام ريثما تفرغ الغرفة ؟ .

— كيف ؟

ـ أنام في الصالون •

ـ لا يوجد سرير في الصالون •• والمستأجرون لا يقبلون فوق ذلك •

طراوة لهجة السيدة شجعت على الالحاح :

ـ الدنيا صيف •• ويمكنني النوم كيفما تيسر ••

ـ آسفة •• ليس في البيت مكان غير مشغول سوى السطح •• هناك غرفة غسيل •

ـ غرفة غسيل ؟!

وضحك للمفارقة ، بينما السيدة تمسح كفا بكف ، مؤكدة أن هذا كل ما في وسعها . لكن ابراهيم سرعان ما أعطى انطباعا بأن العرض ـ على عدم معقوليته ـ يمكن أن يصير معقولا أمام الرغبة المشتركة . فالتقطت السيدة ذلك لتبتسم مشجعة وهي تقول :

ـ عدم المؤاخذة •• الغرفة بساكنها •• قد لا تكون صالحة ، ولكنها ليست سيئة •• كنت أفكر منذ مدة بتجهيزها ، ثم صرفت النظر •• فاذا كنت مضطرا يمكن أن تقيم فيها بضعة أيام •• بضعة أيام فقط ••

قال ابراهيم :

ـ أنا مضطر فعلا .. ولكن ليس الى درجة الاقامة في غرفة غسيل ..

وقال في نفسه : « قد تلائمني هذه الغرفة أكثر من سواها ، فهي معزولة ومستقلة على السطح ، وستجنبني مخالطة الآخرين أو الدخول في أحاديث معهم .. ثم ان كراءها زهيد ولا شك ، وهذا مهم في مثل وضعي » .

قالت السيدة :

ـ فكر في الموضوع .. راحتك أولا .

قال ابراهيم :

ـ في غرفة كهذه لا مجال للكلام على الراحة .. غير أن الضرورة تجعلني أقبل أن أراها ، خاصة أن غرفة أخرى ستخلى بعد أيام كما تقولين ..

صعدا الى السطح .. وعلى طرف منه ، من جهة البحر ، كانت غرفة خشبية مستطيلة تقبع في رثاثة بالغة، فقالت السيدة وهي تشير اليها من بعيد :

ـ هذه هي ٠٠ مظهرها لا يجعل النفس ترتاح اليها، ولكنها ملائمة من الداخل ٠

اعترض ابراهيم وهو يقف في الباب :

ـ ملائمة ؟ انها خم دجاج ٠٠ وهذه الرائحة ؟

ـ أين الرائحة ؟ ثم ماذا تتوقع من غرفة مغلقة ؟ قلت لك سأرتبها ، وعندئذ تشعر بالفارق ٠٠

أضافت بلهجة انتصار ، كأنما تكتشف غرفتها اكتشافا :

ـ انظر الى هذا السطح ٠٠ تستطيع التجول فيه كيفما شئت ٠٠ وقد لا تكون بحاجة ، لأن غرفتك تطل على الحي كله، وتهب عليها النسمات من كل الاطراف ، وفي الامسيات يحلو الجلوس أمامها ، ومن النافذة ينكشف لها البحر ، ومن كل جهاتها تتبدى للعين مناظر فاتنة : خضرة الحدائق ، جمال القصور ، حركة الشوارع ، مرور الناس الذي لا ينقطع ٠

ـ ولكنها مزدحمة بأشياء عتيقة ٠

ـ سأخليها من الاشياء التي لا تريدها ٠٠ لن أبقي فيها سوى الخوان الذي تنام عليه ، وطاولة وكرسيين ، وبعض

الاغراض في الزاوية •• أنت لا تحتاج الى أكثر من هذا••وإذا احتجت أي شيء اطلبه مني ••

ــ والمنتفعات ؟

ــ في الطابق الثالث •• عندنا ••

ــ في الطابق الثالث ؟

ــ وماذا في ذلك ؟! أنت لن تطبخ ولن تنفخ •• وما تبقى سهل •• يمكنك أن تستخدم منتفعاتنا •• لا تتحرج ، أرجوك •

استسلم ابراهيم للسيدة زكية • رغب في أن يبدي الامتعاض لكنه كان قد اقتنع أن ذلك لا يقدم ولا يؤخر • واختصارا للحديث سأل عن الاجرة ، ودفع عن شهر كامل مقدما ، معطيا موافقة ضمنية على الاقامة في الغرفة بصورة دائمة •

هذا أراح السيدة زكية . عرفت أنها عقدت صفقة طيبة ، وطمحت الى ما هو أبعد ، فعملت على ترتيب الغرفة بجد ، ولم تبق فيها الا على الخوان القديم ذي الفراش والوسائد المحشوة بنشارة الخشب ، وثلاثة مقاعد وطاولة ، وركمت في الزاوية بعض الاواني العتيقة وألواحا من الزجاج ، وبرميل توتياء لتسخين الماء وطستاً كبيرا للغسيل وأدوات مماثلة •

كان ذلك في أوائل الصيف ، وقد وجد ابراهيم الغرفة سيئة جدا ، لكن أجرها الضئيل نسبيا ، واستقلالها عن البيت كله ، وانفراده فيها وتخلصه من اطلاع الآخرين على مأكله ومشربه وحياته الداخلية ، عوضه عن سوئها ، فقرر بينه وبين نفسه أن يقيم فيها ، الى أن يتيسر له الرجوع الى بلده ٠

وضع برنامجا أوليا لحياته خلال النهار ٠ كان عليه قبل كل شيء أن يستيقظ باكرا لينزل الى الطابق الثالث فيستخدم المنتفعات قبل أن تكون السيدة زكية وعائلتها قد استيقظت ٠ كذلك كان عليه أن يملأ كوز الماء ويضعه في الزاوية الظليلة من غرفته، ثم ينزل الى المدينة فيبتاع الخبز والجبن وبعض المجلات والصحف ٠ الكتب يشتريها من على الرصيف قرب العازرية ٠ هناك تعرض الكتب العتيقة بأسعار بخسة ٠ ان عليه أن يقرأ ، وهذا وحده يملأ فراغ يومه ويخفف ضغط الملل الذي يستشعره في تفرده غير السامي على السطح ٠ وقرب الظهيرة ينزل الى السوق ٠ يقضي في البرج حاجاته ٠ يدخل في روع الذين يسكن عندهم أنه تغدى في أحد المطاعم ، ويعود فيصعد الى غرفته على الدرج الخشبي الموصل من الطابق الثالث الى السطح ٠

لقد استمتع في الليلة الاولى من مبيته باكتشافات رائعة فيما حوله ٠ كان البحر الازرق الرحب في النهار قد انقلب الى بحيرة

لألاءة تنغمس فيها حزمات ضوئية تستطيل مع المدى في خطوط سهمية عريضة في البدايات مروسة في النهايات • وكانت خطوط الضوء تتقاطع ، وتتراقص ، وتنتشر متبعثرة أو متجمعة ومن هذه الاضواء يستدل على ضخامة وفخامة الابنية المطلة على البحر . وما فيها من حركة تمتصها ضجة النهار • لا شك أن الزيتونة هي المجمع الرئيسي لملاهي المدينة ، بدليل هذه الموسيقى الصادحة في كل جوانبها • موسيقى راقصة،وموسيقى شرقية . وغناء وأصوات تظل الى ساعة متأخرة من الليل •

وكانت الطرقات ، الرئيسية والفرعية ، تعج بالسيارات والمارة ، ومن المسلي متابعتها ومراقبتها من النافذة او السطح • وكان الاصيل ، ونسماته الرهوة الطرية،وغروب الشمس على البحر . والابنية المجاورة التي تظهر أنماط مختلفة للناس عبر نوافذها المضاءة وعلى شرفاتها ، تشكل لوحة شديدة الحيوية ومسلية جدا •

ما أزعجه كان يوم السبت • فيه تستيقظ السيدة زكية وابنتاها باكرا لأجل الغسيل، وكان يعتبر من اللياقة أن يغض طرفه عنهن وهو يلقي تحية الصباح في طريقه الى المرحاض أو المغسلة •

وهذا الرأي الذي اتخذ لديه صفة القناعة ، كان قديما ، وقد أربكه ، حتى انه ، في بعض السبوت ، كان يغسل وجهه في غرفته ، وينزل الى المرحاض العمومي في البرج ليقضي حاجته ، ويغلق باب غرفته عليه ، كيلا يرى نساء البيت وهن ينشرن الغسيل ويجمعنه ظهرا ومساء •

ثم ان ازعاجا آخر كان يستشعره من جراء « اضطراره » الى عبور صالون الطابق الثالث ، ليصعد الدرج الخشبي الى السطح • كان المرور عبر الصالون عذابا حقيقيا بالنسبة اليه. لأنه يلقى ثمة أهل البيت ، فيكون عليه أن يحييهم ، وبسبب من الحاح السيدة زكية ، يجالسهم أحيانا ، ويشرب القهوة معهم ، ويدخل في أحاديث يحاول اقتضابها ما أمكن • غير أن أهل البيت كانوا يفيضون في أحاديثهم ، وبغير حرج يتكلمون على مشاكلهم الخاصة ، ويحملونه على الاصغاء والمشاركة ، وكثيرا ما طلبوا رأيه في المسائل المعروضة فيحاول أن يتملص ، أو يعطي أجوبة عامة ، وقد يعتذر وينسحب الى غرفته على السطح ، شاعرا بالراحة وهو بين جدرانها •

لقد علم من الام أشياء كثيرة عن الاسرة • كانت السيدة لا تحب زوجها ولا صهرها ، وترى الى ابنتها العزباء مخلوقا جديرا بالرأفة والرعاية ، وهي تحمل هم مستقبلها حملا جديا وكان

مصير الاسرة كله مرتبط بالسيدة زكية ، هذه التي لا تفتأ تشكو على نحو موصول ٠

الاب قصير ، أشعث ، يملأ وجهه نمش و بقع بنية مما يطغو على الجلد عند تقدم العمر ٠ وهو يعتمر قبعة عتيقة حوافيها مدلاة الى تحت كأنها صحن على رأسه لانعدام الكسرة التي في قبتها ، أو عدم اهتمامه بها عندما يلبسها ٠ و بنطاله قديم ، لم يعرف الكي منذ زمن بعيد ، وسترته مجعدة الياقة متسخة عند القذال ، و ربطة عنقه مثل بنطاله ، حائلة اللون ، ملتفة على بعضها ، معقودة في رقبته كيفما اتفق ٠ وكان يقوم في البيت بدور الخادم ، وينظر اليه الجميع على هذا الاساس ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد عرف فراش السيدة زكية منذ زمن طويل ، ولولا أنه نافع لهذا الدور الذي يلعبه مستسلما مغلوبا على أمره ، لاطرحته الاسرة من الحساب و ركنته في غرفة الغسيل مع الاشياء البالية التي لا لزوم لها ٠ وعبثا حاول ابراهيم ، خلال الاوقات التي جالسه فيها ، أو التقاه على الطريق أو على السطح ، أن يخمن الوضع الجسدي الذي كان عليه أيام الشباب ٠ كان منظره يوحي بأنه شب على هذا الشكل ، وفي الكهولة ازداد قصرا ليس الا ، ومن الاسرار التي تحتفظ بها العائلة لنفسها . أو تتجنب السيدة زكية الكلام عليها ، كيف و أين ولماذا تزوجت

هذا الرجل ، وما هو الدافع الذي أغراها أو اضطرها الى القبول به ، هي التي لا تزال ، برغم الكهولة ، تحتفظ بآثار ملاحة ، وكان لها ، في صباها ، جمال أورثته ابنتها المتزوجة ، وابنها الحلاق ، أما ابنتها العزباء فقد جاءت على شكل والدها ، مع بعض التعديل الذي تفسده عنوستها كلما تقدم بها العمر •

وكان صهرها فيليب على صورة شاب اصطناعي مما يعرض كموديل في واجهات المخازن الكبرى • انه أشبه بلعبة كبيرة متناسقة التقاطيع ، حسنة التكوين ، بغير روح • وكان يعنى بلباسه عنايته بمتابعته أخبار سباق الخيل ، ويبتسم ، كما يتحدث باعتدال ، في جلسته المتأنية التي يخاف فيها على كية بنطاله ، ويحرص على ألا تلحق بسترته ذرة غبار ، لذلك ينتقف بسبابته وابهامه على كتف السترة لازالة ما يكون قد علق بها ، وتتكرر حركته هذه بحكم العادة •

ولأنه موظف صغير ، في دائرة ما ، كان يواظب على وظيفته بغير انقطاع ، وبعد الغداء ينام الى العصر ، ثم يتأنق ويذهب ، شأنه شأن أي مستأجر ، لا يعنيه أمر البيت • وأيام الآحاد يكرر أحاديثه عن السبق والخيول ، ويحلم بربح كبير ، ولا يؤرقه ، كما يبدو ، أن الحظ يخونه كل مرة ، وان الربح المتوقع سراب. ولا يقلقه أن العائلة ، بما فيها زوجه ، لا تنطوي على أيما

مودة له ، وعلاقته بها تفتقر الى الحرارة التي تكون بين زوجين شابين ، والى الاعتبار اللازم له من أهل الزوجة بصفته رجلا في البيت ، وحتى الامتعاض الذي يظهرونه له لا يعطي أي رد فعل من قبله ٠

ولقد قيض لابراهيم ، خلال اقامته في غرفة الغسيل على السطح ، أن يقص شعره عند الابن الحلاق ، مراعاة لخاطر السيدة زكية ، فكان يطلع في دكانه ، من خلال الصور وأحاديث الابن ، على آخر أخبار الممثلين والممثلات في هوليود ٠ كانت كاترين هيبورن هي ممثلته المفضلة ، وقائمة أفلام الاسبوع محفوظة لديه كما لو في نشرة أو مجلة سينمائية ، وكان ينصح ابراهيم بأن يرى هذا الفيلم أو ذاك ، ويتكلم على كل ذلك بحماسة تفوق حماسته لعمله ، وفي الاصائل يجتمع أمام دكانه بعض فتيان الحي ، وتمر البنات وتكثر التعليقات ، وفي الليالي تسمع عربدتهم في خمارة مجاورة ، ويكثر تجوالهم في الامسيات مطاردين الفتيات ، مغنين بأصوات ناشزة ، بالفرنسية غالبا ٠

أما دخله من الدكان فكان ينفقه على لباسه وهواياته السينمائية وتردده على ملاهي الزيتونة التي يعرف برامجها والوجوه الجديدة من الارتيستات في كل منها ٠

الام وحدها ، السيدة زكية ، ترفع هموم البيت على كتفيها

وتنوء تحتها كمن يرفع صندوقا ثقيلا ويصعد به درجا عاليا ، نحيلة ، وسيمة الوجه على بروز في الوجنتين ، ممسوحة الصدر رقيقة العنق ، وشعرها الخرنوبي قد غزاه الشيب ، لكنها لا تعنى بصبغه • ومع كل طيبتها التي تتجلى بلطفها ـ على خلاف مؤجرات الغرف ـ لا تنقطع عن الشكوى من الزمان والزوج والصهر ومتاعب المستأجرين •

ابنتاها فقط كانتا موضع حبها وايثارها ، لا تشكو منهما ، لاترى أي نقص أو شائبة في سلوكهما، وتجعل محدثها يستشعر حتى بدون أن تقول ذلك ، أن حظهما سيء كحظها ، وانها تشفق عليهما ، وتتمنى ، بل وتبحث عن السعادة لهما ، دون أن توفق الى ذلك ، ودون أن تعرف السبيل اليه •

وكان ابراهيم قد رأى البنت المتزوجة على السطح ، خلال نشر الغسيل أو جمعه ، وفي الامسيات حين تصعد مع طفليها ، البنت والصبي الاصغر ، الى السطح للنزهة وليلعب الطفلان قليلا تحت اشرافها • كان ينسحب الى غرفته اذا ما صعدت ، ويتراجع عن الباب ويواريه تجنبا للحرج أو المضايقة • لكنه لا يستطيع من داخل الغرفة الا أن يرى اليها ويعجب بجمالها ، فهي مربوعة ، ممتلئة الجسم في غير سمنة ، مدورة الوجه على

بياض عاجي، ذات شعر اسود و عينين واسعتين يرقد في أعماقهما نداء مبهم ، ورغبات مكبوتة •

واذ يرى ساعديها العاريين ، وما يشف عنه فستانها الحريري الصيفي من تقاطيع الجسم ، يجاهد لينتزع نفسه من موقفه ، ويتراجع الى قاع الغرفة ، أو يتمدد على الخوان. قاسرا نفسه على تجاهلها ، رافضا باصرار أن تقوم بينه و بينها أي صلة . لكي لا يشجعها على الدخول معه في حديث ، يجر الى استفسارات حول وضعه وسبب اقامته عندهم منعزلا ، عاطلا عن العمل •

أما البنت الاخرى ، العزباء ، الصورة المنقحة عن دمامة والدها ، فقد كانت مثار اشفاقه ، لكنها لم تكن تحظى منه بأي اهتمام ، وحتى لو بادلها التحية فانه كان يفعل و بصره مطرق في الأرض ، واذا ما صعدت الى السطح ، انزوى في غرفته حتى يسمع وقع خطاها هابطة على السلم الخشبي •

هكذا طوال الشهرين ، ظل ابراهيم لغزا بالنسبة لهذه العائلة وقد أخفقت كل محاولات السيدة زكية في جعله يختلط بهم ، وعندما دعته ، ذات يوم ، الى حفلة صغيرة بمناسبة عيد ميلاد حفيدتها شكرها بحرارة ، وحمل معه هدية لائقة من السوق ،

قدمها الى الجدة ، وتغيب عن البيت عمدا ، فلم يرجع الا بعد الحفلة بوقت طويل، متذرعا بشغل طارىء اضطره الى التغيب •

ولارضاء السيدة زكية ، كان يحمل ، من حين لآخر ، بعض الهدايا الصغيرة اليها ، كما كان يدفع أجر الغرفة في موعده ، بينما يماطل المستأجرون الآخرون أياما ، وقد يؤجلون الدفع من شهر لشهر ، ويعبثون في البيت ، مكثرين من الطلبات والمداخلات ، ويقيمون السهرات ويكثرون من استقبال الزوار من زملائهم ، وتضطر السيدة زكية الى المراقبة جيدا ، كيلا يأتوا بالفتيات أو النساء الى غرفهم هذا الذي لا تسمح به أبدا •

لكل هذه الاسباب ، ولأن ابراهيم ارتضى الاقامة في غرفة الغسيل على السطح بغير تذمر ، ولم يتقدم يوما بطلب أو تند عنه شكوى ، فقد اعتبرته مستأجرا مثاليا • وقد زاد من اعجابها أنه لا يستخدم المنتفعات الا في حالات الضرورة القصوى ، واذ يمر بالصالون صاعدا الدرج الخشبي الى غرفته يمرق كطيف ، لا يحدق في الغرف، ولا يلتفت الى الجالسين في الصالون،و بصوت مهذب ، هامس ، يلقي التحية على من يجدهم ويتابع طريقه ، حتى قالت له السيدة زكية ذات يوم « يا الهي لماذا كل هذا الخجل والانطواء ؟ » وقالت له في يوم آخر « أنت حساس الى

درجة تخشى معها أن تنزعج الارض التي تدوس عليها » وكان هو يبتسم شاكرا، معرضا عن الحديث الذي أحس برغبة السيدة زكية في أن تفتحه معه •

ولقد فوجىء ذات ضحى ، أن السيدة زكية صعدت اليه حاملة الركوة وفنجانين ، ودعته الى تناول القهوة معها ، لأنها تحس بضيق ، ورحابة المناظر على السطـح تفتـح النفس ، والطراوة في فيء الدالية ، منعشة ، وكان هو ، كعادته في مثـل هذا الوقت ، يستلقي على اسمنت السطح ، تحت تلك الدالية ، ويقرأ في كتاب ، أو يلاحق رقاق الغيوم ، في تشكيلاتها البديعة، على صفحة الماء الساحلية ، الغائمة بفعل شحنة الحر التـي تحملها وتصبها على الارض عندما ترتفع الشمس وتسطع متوهجة في الظهيرة •

شربا القهوة برشفات متأنية ، وطوال الوقت ظلت نظراته معلقة بشفتي صاحبة البيت • قال في نفسه : « هذه الزيارة الصباحية ليست لوجه الطراوة أو المناظر التي يتكشف عنها السطح، هناك كلام على لسان جارتي، تداريه، تمهد له، تتعمد أن يكون عرضا ، مساقا بالحديث العام، أو متفرعا عنه » وقالت السيدة في نفسها : « لاينبغي أن يشعر أنني صعدت اليه بالقهوة بهدف طرح موضوع معين • السر الذي يحتفظ به لنفسه سيكون

عسيرا علي انتزاعه أو الاطلاع عليه اذا استشعر رغبة متعمدة في ذلك •• لنتكلم في العموميات •• عن رأيه في الغرفة ، راحته فيها ، ما يحتاجه ، ولأفتح له صدري • ان تفتح صدرك للآخر فأنت تشجعه ، تغريه بأن يفتح صدره لك » •

طفقت تتحدث عن اسرتها • زوجها الذي لا يصلح لشيء ، ولم تعرف الهناءة معه • صهرها البليد الذي ينفق دخله على أناقته وسباق الخيل ، ابنها الطائش ، المبذر ، بنتها المتزوجـة المظلومة التي لم تستمتع بشبابها ، والتي لم تعرف الحب ، لأنها زوجتها صغيرة ، وفرضت عليها الزوج الكسول فرضا ، وهي ، الجميلة ، كانت جديرة بأحسن الازواج ، ولكن الحظ ••

بغتة سألته وهي تتنهد :

ـ أليست جميلة ••

أومأ برأسه أن نعم ، وقال بكياسة :

ـ جميلة من غير شك •

« جميلة الى حد لعين ، مغر •• وليس جمالها مقصورا على وجهها ، هذا البدري في استدارته ونقائه ، بل ان جسمها ، هذا المكلثم ، الملفوف ، الصارخ بنداء الشهوة الحبيسة ، غير المرتوية يزيد في جمالها » •

وقالت السيدة :

ـ نعم جميلة •• الكل يشهد بذلك ، الكل يراه •• الا زوجها البليد ، وهي العاقلة ، الخجول لا تعرف سوى البيت ، ونزهتها الوحيدة على السطح •• وأنت ••

« نزهتها الوحيدة على السطح ؟ وأنا ؟ ماذا عليّ أن أفعل أنا ؟ هل تشكو لأنني أتهرب منها ؟ وهل تصعد لأجلي ؟ كي تراني ؟ وهل هذا عرض لملاقاتها ومحادثتها ؟ وبعدئذ تأتي الي صباحا ، والبيت فارغ ، وغرفتي لا يطرقها أحد ••؟ » •

راح في خيال نشيط ، محروم ، يتابع المشهد ، بينما الام تتابع الحديث •• كان يسمع ولا يسمع • لا يعي ما تقول •• يتصور البنت ، وقد وافته في مثل هذا الوقت ، وضمتهما الغرفة ، والباب مقفل •• وعارية تصير شيئا فشيئا ، تلك الجميلة المربوعة ، ذات الصدر الناهد ، والجسم المكتنز ، الغض ، ثم تصبح له ومعه على الخوان ••

تنبه على صوت السيدة زكية يسأل :

ـ ستطول اقامتك عندنا ؟

ـ لا أدري •• كل ما في الامر انني مرتاح ، وهذه الغرفة ، على السطح •• والمناظر ••

ـ ولا تريد أن تسكن احدى الغرف في الطابق الثاني اذا فرغت ••؟

ـ ربما أفعل •• ولكن غرفتي لا تضايقني •• أحب الانفراد هكذا ••

ـ وفي الشتاء ؟

ـ نحن في أوائل الصيف ••

ـ ولكن على المرء أن يحسب ••

ـ من طبعي ألا أحسب •• الشتاء بعيد بعد ••

ـ مهما يكن •• اذا فرغت غرفة ولم تأخذها فقد لا تفرغ أخرى •• تضيع الفرصة •

ـ لا تقلقي بشأني ••

ـ ولكن أنت •• ألا تقلق من هذه الناحية ؟ تذكر أن هذا حي الزيتونة . والطلاب يرغبون الاقامة فيه •• انه أفضل أحياء بيروت ••

ـ أعرف ••

قالت السيدة زكية وقد ساد الصمت دون أن تتوصل الى شيء :

ـ لك أهل ؟

ـ نعم ٠٠

ـ أم وأب وأخوة ؟

ـ أم وأب وأخوات فقط ٠٠ أنا وحيد العائلة ٠٠

ـ ولماذا تركتهم ؟

ـ اختلفت معهم ٠

ـ على مال ؟

ـ على قضية عائلية ٠٠

ـ وتنوي الاقامة في بيروت ؟

ـ لم أقرر بعد ٠

ـ تستطيع أن تعتبرنا كأهل ٠٠

ـ شكرا ٠٠

ـ ويمكنك أن تطلب أي شيء تحتاجه ٠

ـ عندما أحتاج الى شيء أطلبه ٠٠

ـ ولكنك لا تطلب ٠٠ هل يعقل أنك لم تحتج شيئا طوال

هذه المدة ؟ المستأجرون الآخرون يدخلون بطلب ويخرجون بآخر ·· الوحيد الذي لا يطلب شيئا هو أنت ، والوحيد الذي يرفض الاختلاط بنا أو السهر معنا هو أنت ·· صحيح أننا لا نرحب كثيرا برفع الكلفة مع المستأجرين ، وتقتصر علاقتنا بهم على ترتيب غرفهم وتنظيفها ، ولكن يحدث أن نراهم بيننا ، وأن يسهر أحدهم عندنا ، أو نتبادل الاحاديث في أوقات الفراغ ·· الوحدة صعبة ·· كيف تقضي وقتك وحيدا ؟ ألا تضجر ؟

كان ابراهيم قد تمدد على اسمنت السطح ، متكئا على يده اليمنى في وضع جانبي ، يحدق في السماء بنوع من ذهول ، ملولا سئما راغبا عن استمرار الحديث الذي طال · ولم يكن في السماء ما يلفته · بدت هي الاخرى ملولا ، ساكنة في لامبالاة ، عالية ، تتضوى بالشمس ، وتعكس قبتها لونا طحينيا فاتحا ، لا يحجب ولا يشف ، والنور فضاء واسع ، وعبره تنداح المشاعر والافكار ، فيمتصها كما الدخان المتصاعد من السفن في الميناء ، ويحيلها الى هباء ··

كان يجاهد ضد هذه الصيرورة الهبائية لمشاعره وقواه · ذات يوم ، في بيت أهله ، حاول اصلاح لوحة قديمة · كان خشب الاطار نخرا ، عتيقا ، وكان والده قد عثر على اللوحة لا يدري أين ، فلما فتحها لاستخراج الصورة ، تفتت الحرير المرسوم

عليه لمجرد أنه مسها • لقد بليت لأنها تأطرت بين زجاج وخشب زمنا طويلا • الاحتباس والعطالة ، وهو بينهما • « قد أكون حريرا •• الحرير نفسه ، على متانته ، اذا لم يشم الهواء يبلى ويتفتت • لست في ملاسة الحرير ولا قوته • أن ينقطع الانسان عن النـــاس ، عن الحركة والفعل ، عن المشاركة ، ماذا يصير اليه ؟ يتعطل ، يشيخ ، والعمر ، في هذه الحال ، لا يحسب بالسنين ، الشباب يشيخ • شاب شيخ ، منخور كاطار اللوحة ، متفتت كحريرها ، تستهلكه الحسرة • المرارة في العجز عن الفعل عث • الرفض في الانسحاب من الساحة هزيمة تراجعية بطيئة • اشتم العالم ، سب جلاديك ومعذبيك ، قل عن السوء ما شئت •• وبعـــد ؟ ألا تعمـــل فلا شيء • تنتظر أعجوبة التغيير وأنت في غرفة على السطح ؟

انتظر اذن ، وفي الليل ، عندما تنام ، رش الد•د•ت• حول فراشك ليذود عنك البق • لقد هزمتك حشرة • وهي خير منك لأنها تهاجم ، تعمل ، لا تخشى السحق ، فالموت سهل ما دام سيأتي اليوم أو غدا ، وعلى أية صورة ، وما دام ، أخيرا ، لا مفر منه •• فلماذا اذن الاختباء ؟ والى متى ؟ وما نفع أن تمضغ المرارة ، وتطل ، كجندي مهزوم ، من نافذة خشبية علـــى المعركة ؟ »

قالت السيدة زكية قاطعة عليه سدوره في فراغ الفضاء من حوله :

ـ أنت لست مستاء من الاقامة في غرفة الغسيل اذن ؟

ـ ليس تماما ٠٠ أنت تعرفين أنها ليست مسكنا ٠ ولكنني قنوع ، لا شكوى لي ، في الوقت الحاضر ٠ ٠

ـ وأهلك ؟

ـ لا يعرفون عني شيئا ٠٠

ـ ربما كانوا يبحثون عنك ٠٠ وماذا سيكون حالهم اذا لم يهتدوا اليك ، أو اذا وجدوك وأنت في هذا الوضع ؟

ـ أهلي لا يبحثون عني ٠٠

ـ نفضوا يدهم منك ؟

ـ هذا ما أعتقده ٠٠

ـ أنت حر اذن ٠٠ تستطيع أن تتصرف ٠٠ تشتغل مثلا أو تتزوج ٠٠ ؟

ـ تماما ٠٠

ـ ولماذا لا تفعل ؟ ما هو شغلك في الاصل ؟

ـ لا شغل لي •• لا أحب الشغل ••

ـ أنت تمزح •• هذه نكتة ••

ـ أنا لا أمزح ولا أنكت •• عشت دائما هكذا : كسولا ، بليدا ، أستلقي وأحدق في السقف مثل تنابلة السلطان ••

ـ لا أصدق ••

ـ صدقي ••

انقطع الحديث لحظة بينهما • تفرعت قناة جانبية لتفكير السيدة زكية . ستعمل على جعلها قناة رئيسية بحكم خبرتها ، غير أن خبرة السيدة زكية ، في المجال الذي تفرع اليه تفكيرها كانت ضئيلة وساذجة ، وكان ابراهيم قد استشف ذلك من حركاتها المهزولة ، البائسة ، المضطربة أبدا ، كسفينة جانحة لا يعرف ربانها تعويمها، لأنه لا يتقن مهنة الربابنة، وقد اوكلت اليه المهمة بحكم الظروف ليس الا •

في تلك الفترة من النهار تكون الاسطحة فارغة • بين الحين والآخر تصعد امرأة او فتاة الى سطح مجاور لتنشر غسيلا أو تضع متاعا غير قابل للاستعمال بعد ، أو تقطف بعض أوراق العنب ، ومن النوافذ المجاورة لبيوت حي الزيتونة الفخم

والمشبوه ، تنفض سجادة صغيرة ، تكنس حافة النافذة ، او يمسح زجاج ، وقد تخرج امرأة أفاقت عند الظهيرة لأنها كانت تعمل في احدى علب الليل . أو تقامر في أحد البيوت ، فهي مخمورة أو متعبةوكالسمكةالموشكة على الاختناق تعب النسمات الشحيحة ، وقد تعصر جبينها وهي تتناول قهوتها على الشرفة ٠

كان يحلو له أن يتابع هذه المشاهد من متكأ التنابلة الذي اتخذه تحت العريشة وفوق اسمنت السطح ، ويدع نفسه تحوم حول تلك الشرفات وصاحباتها وأجوائهن ولياليهن في رحلة شرود عابثة وسنانة ، صامتة في كل حال ٠

وقالت السيدة زكية تخرجه من هذه الحال :

ـ بنتي ماغي ٠٠

فرنا اليها متسائلا بغير كلام ٠٠

ـ أقول بنتي ماغي ٠٠

ـ ما بها ؟

ـ حظها قليل المسكينة ٠٠

ـ قال في نفسه : « اللعنة على الحظ » ثم أضاف : « قبح ماغي يا سيدة زكية ، لا حظها هو السبب » وفكر : « ما ذنب ماغي

اذا كانت قبيحة ؟ لماذا يأتي أحدنا الى هذه الدنيا جميلا والآخر قبيحا ؟ » ٠

عادت السيدة زكية الى النواح :

— ماغي بنت طيبة ، لكنها قليلة الحظ ، قلبها مثل قلبي ، وحظها مثل حظي ٠٠

(وشكلها كشكلك الضامر أيضا)

— تصور أنها تقبل بزبال لو تقدم طالبا يدها ٠٠

حملق فيها ابراهيم بنظرة انبغات متسائلة ٠ تولاه احساس بالبرودة كمن تسقط عليه زخة ماء وهو يجتاز الشارع ٠ ان ادخال سيخ من الحديد في الخد لاخراجه من الخد الآخر يصبح مألوفا مع التمرين ٠ عليه أن يتمرن على أسياخ الهواء المتستر بكلمات السيدة زكية على وجهه وعنقه ٠ ربما كانت طيبة أو خبيثة ، لكنها ، في كل حال ، تقدم عرضا ٠ ابنتها تقبل بزبال لو تقدم طالبا يدها ٠٠ « أنت أقل من زبال في نظرها ، ثم أنت أقل من زبال في نظر نفسك ٠ الزبال يعمل وانت عاطل ٠٠ أنت تعمل لأجل المستقبل وهذا ما لا تعرفه هي ، ولن تقوله لها ٠ ثم ما النفع من قوله ؟ هل العمل لاجل المستقبل عمل في نظرها ؟ الشهادة نفسها تظل مسحوبة على المستقبل ومتوقفة على

الاعتراف بك شهيدا • آنذاك لا تتوقع أن تعامل بتكرمة من الذين يرون العمل للمستقبل لا عمل ، دع عنك هذا التفكير ، وسيأتي يوم تجد فيه صورتك في عيون عامل ما ، فلاح ما ، بائع كعك ، امرأة غسالة ، وفئات من الذين يكدحون ويعملون للمستقبل مثلك • هؤلاء سيبسمون لك ، وسيظللون ، في كل الاحوال، يرون قبضتك مرفوعة فوق حقول القمح، وزندك مع زنودهم في دفع الآلات التي تتقوص ظهورهم وهـم ينحنون عليها » •

ـ ماغي بنت عاقلة ، وستكون لها حصة من هذا البيت •• وهي متواضعة لا تطلب سوى السترة •• لو طلبها ماسح أحذية ••

« الموت قريب بعيد ، يا سيدة زكية ، وقد تعيشين طويلا ، فما خوفك على ماغي أن تبقى عانسا بعدك ؟ أنا أفهم قلب الام، لهفته ، شعوره بالذنب تجاه فلذة قبيحة منه ، لكن القبيحة تجد لها قبيحا ، وقد تجد جميلا ، فالمثل يقول حظ الجميلة عند القبيحة ، ومهما يكن فانني ، أنا الذي في نظرك أقل من زبال أو ماسح أحذية ، ليس بوسعي ان أتزوج مثل الزبال وماسح الاحذية •• انني مطارد يا سيدة زكية • فهل تفهمين ما معنى ذلك ؟ هل طوردت يوما ؟ لا أقصد طراد الشباب ، ولا طراد

السيد زوجك بل الطراد الآخر • ملاحقة رجال الامن لأن لك أفكارا تشكل خطرا على عرش سيدهم ؟ »

قالت السيدة زكية :

— وماغي طباخة ماهرة •• هي الآن في المطبخ ، لا تدعني أمد يدي الى عمل تستطيعه ، وكذلك تفعل مع أختها •• أختها لا تشبهها •• تحب الراحة والنوم وقراءة المجلات •

« أختها جميلة •• وهذا السبب » •

— وفي المدرسة كانت ماغي مجتهدة •• لغتها الفرنسية رائعة •

« أنا أفكر بوجهها وساقيها »

— لماذا أنت صامت ؟

— أفكر بالبحر ••

— تنوي السفر ؟

— أنوي الانتحار ••

خفقت كفيها على وجهها بحركة دهشة وأسف :

— ماذا تقول ؟

ــ أنوي الانتحار ٠٠

ــ يا ربي ! لا أصدق ٠٠ تقتل نفسك ؟ تموت ؟ من أجل أي شيء ؟ خلافك مع عائلتك لا يستأهل كل هذا ٠٠ فكر ٠٠

ــ فكرت ٠٠

ــ ستنتحر ؟

ــ من كل بد ٠٠

صمتت السيدة زكية لحظة وقالت :

ــ تغرق نفسك في البحر ؟

ــ في البحر ٠٠

ــ وربما تنتحر بطريقة أخرى ، في مكان آخر ٠٠!

قالتها وقد جعلت عيناها تدور في وقبيهما بحركة مذعورة . وعلى غير ارادة حانت منها التفاتة جهة غرفة الغسيل ٠

قال ابراهيم :

ــ لن أنتحر في غرفتك على كل حال ٠٠

ــ أنت لن تنتحر أبدا ٠٠ قل هذا ٠٠ أرجوك ٠٠

ـ لا أستطيع الوعد •• ربما غيرت فكري وربما نفذت ما اعتزمته ••

ـ اذن لن أتركك وحيدا ••

ـ وجودك بقربي يؤنسني •• تفضلي بالبقاء ما شئت ••

ـ ولكنني مضطرة لشراء بعض الاغراض •• سأذهب الى السوق . وفي غيابي سأبعث ماغي لتبقى الى جانبك •• أنت اليوم متضايق •• يا الهي ! لا أتصور كيف تجرؤ على قتل نفسك •• ماغي ••

قال ابراهيم بنبرة جد وهو يصطنع هيئة عبوس نافد الصبر :

ـ لا ترسلي أحدا •• قلت لك لن أنتحر هنا •• ولن أنتحر بهذه السهولة •• سأفكر في الامر •• ما قلته مجرد خاطر •• أنت لا تخطر لك خواطر سود أحيانا ؟

ـ يحدث •• في هذه الحال أتمنى الموت •• أسأل الله أن يأخذ روحي •• ولكن الله يعرف أنني غير جادة ، وأنها فشة خلق لا أكثر ••

ـ اعتبري ما قلته فشة خلق اذن ••

ـ فشة خلق لا تكون هكذا •• أنت مصمم •• أرى هذا في وجهك •• سأبعث اليك بماغي ••

قال ابراهيم في نفسه : « السيدة تريد قلب مزاحي الى جد ·· اذا جاءت ماغي لا بد من الانسحاب الى الغرفة ، واذا طال ترددها على السطح لا بد من الرحيل ، ولانني مضطر الى البقاء فسيكون عليّ احتمال الام والبنت ·· ولئن عجزت فان ضجري خليق بأن يدفعني لالقاء نفسي من الطابق الثالث » ·

قال في نفسه أيضا : « ماذا لو اعتقدت السيدة زكية أنني عازم على الانتحار فعلا ؟ ثم ماذا لو أخبرت ابنتها وعائلتها ومستأجريها ؟ المزحة اللعينة قد تنقلب الى جد ألعن ·· الكلام مع امرأة يجب أن يكون على درجة من الحذر يقي المتكلم ورطة غير متوقعة » ·

أضاف : أنا ابن كلب غجري ·· لم أتقيد بأصول اللعبة لانسان يختبىء وعليه أن يتكلم أقل ما يستطيع ، النضال والثرثرة لايجتمعان · السيدة زكية لسان طلق لأمرين : اللطف أو الشكوى وأنا أخشى اللطف وأضيق بالشكوى ·

قالت السيدة زكية :

ـ اذا لم يكن لديك سبب آخر فان ضجرك يعود الى هذه الوحدة القاتلة التي أنت فيها · قلت لك انزل الينا · في النهار أنا وماغي وايفيت ، وفي الليل زوجي وابني والمستأجرون ··

تستطيع أن تتسلى قليلا • أنا لا أسمح لماغي بالذهاب الى السينما بمفردها •• وايفيت متزوجة وزوجها غيور • صفة لعينة فيه مثل الكسل ، ولكنه يتسلى هو الآخر . وهي ؟

تكلمت أيضا فأصغى اليها مبتسما . كان يرغب في ازالة الرعب الذي خلفه في نفسها كلامه على الانتحار لكنه لاذ بالصمت لان اهتمامها به زاد الى حد تقديم عروض مغرية ، فوق أنه خشي أن يوقظ اصراره على النفي اعتقادها بأنه منتحر كما زعم •

وحين ودعته وانحدرت عبر السلم الخشبي الضيق ، استدار في فيء الدالية واستلقى على ظهره متابعا التواصل مع البعد السمائي . محمولا على فراغ ركوده الذهني كأنما يحبس أنفاسه وهو على سطح الماء •

• • •

بعد قليل صرّت الخشبات العتيقة تحت أرجل جسم يصعد اليه • تظاهر بالنوم كيلا يقع بالحرج • انقلب على جنبه معطيا ظهره لذلك الجزء من السطح حيث ينشر الغسيل عادة ، وكان على يقين لا يدري سببه أن هذه ايفيت وليست ماغي • لعله استدل على ذلك من صرير الخشب تحت وطء جسم ثقيل •

بات يترقب أن يسمع صوتا أو حركة يعرف منهما الصاعد اليه. لكنه فوجىء أن خشبات السلم صرت من جديد . معلنة نزول الصاعد الذي توقف في فوهة السطح قليلا ثم تابع طريقه • رجع وحيدا ضجرا بحكم الوضع والبطالة • أنشأ يكلم نفسه بغير صوت :

« ماغي فتاة بعد كل شيء • انسانة هادئة ومنكمشة ، من النوع الذي يعرف حجمه وحقيقته ولا يغالط نفسه فيهما • غيرها كان يسعى ، بالتظرف ، باصطناع خفة الدم ، بالحركة والصلاة الابتهالية الى الاله الذي يعبد، أن يجعل السماء تمطر معجزة ، ولو من نوع مطر الصيف الذي تحمله سحابة عابرة • ماغي لا تفعل شيئا ، ربما وطنت نفسها على تقبل بتولتها ونذرتها الى قديس ما • هذه العانس قبل الاوان صارت عانسا مع أن قطار الزواج لم يفتها • أقسى مافي أمرها شعورها الحاد بهذا الجفاف في عالم يمور بالماوية من حولها • حي الزيتونة وأمها تحالفا على انماء شعورها هذا ، ولعلها ترفض أن ترضى بزبال أو ماسح أحذية ••• وقطعا لم تفكر به على نحو ما فكرت أمها ، لكنها تذبل كالورقة الخريفية في قلب الصيف • نسغ الشجرة لا يصلها • وهي ، في الارتواء غير المجلوب حتى في الحلم ، لا تستقي عاطفة تبعث الدم في الجسم • انها بحاجة

الى صدمة كهربائية لايقاظ الخلايا الهاجعة ، صدمة عاطفية لهز المشاعر الصدئة ، ولعلك أن تكون تلك الصدمة ، اذا لم تكن ذلك العريس ، وأنت ، أيها الانساني الكلي التقدير ، غير مستعد لان تكون صدمة من هذا النوع . حب الذين أنت في بيتهم محال عليك . هذا واحد من البنود غير المدونة في الدفاتر لأيما مناضل سابق ، لكنها أعراف كرستها ظروف التجارب ، ومن باب السلامة أن تتقيد بها ، وأن تفعل ذلك الى الدرجة القصوى ، ما دامت ماغي على هذا اليباس الذي لا أمل معه في أي عصير يرطب جوفك الملفوح بنار الحرمان الجهنمية » .

صرّت خشبات الدرج كرة أخرى . صريرها أشبه بالأنين . عليه أن يستدير بظهره الى فوهة السطح ، لولا أنه غير متلائم مع لعبة العفاف المكذوب ، وغير قابـل للانفتاح على الزائر العزيز لعالمه الاسمنتي المسور بالاحجار . السيدة زكية تراقبه ولا شك . أرصادها مشرعة العيون والآذان بعد تلك النكتة العجفاء مثل صدرهـا الممسوح . ولكي يتخلص من تلصص الفوهة السطحية الى يمينه ، من الافضل أن يدلف الى غرفته . هناك يقرأ أو يكتب . يفعل ما يحلو له سوى التدخين ، هذه الحسرة التي لا علاج لها بسبب من أن رذيلتها المشتهاة تحتاج الى نقود لا يملكها .

. . .

نهض متثاقلا وسار باتجاه الغرفة • لم يلتفت الى فوهـة الدرج برغم رغبته في أن يفعل ، وعندما استلقى على الخوان كان مطمئنا الى أن البق لن يهاجمه لو أغمض •

البق ينام في النهـار • يلطو في الشقوق الخشبية وثقوب المسامير والمفاصل ، انه في كل خشبة يجد له مسربا ، فاذا كانت الاخشاب عتيقة ، والغرفة خشبية كلها ، هيكلا وسقفا وأثاثا وأدوات رثة ، مخلعة ، مكسرة ، مركومة في الزوايا ، فان البق واجد سلطنة يرتع فيها مع ذراريه المتوالدة بكثرة مقرفة . لا سبيل الى الكفاح ضدها الا بالحرق الكامل •

لقد جرب مكافحة البق بقتله سحقا • كان يمزق بعض ثيابه ويستخدمها في ذلك فتتبقع الخرقة بالدم النتن وتلوث أصابعه ، وتزكمه رائحة كريهة زنخة ، مقززة لا تحتمل ، وعندما كان يطفىء الضوء لينام كانت تزحف عليه أرتال بقـّية من مختلف الحجوم ، يكفي أن يمسح رقبته أو ظهره أو خده لتهر منها أعداد مفزعة ، وعندئذ كان ينتعل حذاءه ويدوسها ويخبطها بأية خشبة أو أداة قريبة منه •

غير أن ابراهيم ، وهو يستلقي على الخوان ، لم يقو على كبح رغبة حكية في أن يقلب طراحة الخوان ويرى الى أعشاش

البق في الخشب تحتها ، في نظرة حقود عاجزة ، النظرة نفسها التي يطالع بها الذين لهم خواص البق ٠٠ لقد كان هؤلاء « البقّيون » من الكثرة والتكاثر بحيث ملأوا كل مسارب الحياة الخشبية العتيقة التي تسود بلده ٠ وهو قادر على دفع حياته ثمنا لعراك مع خصم حقيقي ، خصم من أولئك الذين لا تتأذى اذا نظرت اليهم ، ولا تتسخ كفاك اذا لمستهم ، وفي وسعك ، في قراع من أي نوع ، أن تقع منهم على جسد صلب لا مادة هلامية دبقة ، مصقعة ، كتلك التي لقناديل البحر ٠

ان كدرا ما ، مجهول المصدر ، كان يستولي عليه الآن وهو منطرح على الخوان ، وقد عزاه الى تلك النكتة غير الموفقة عن انتحاره ، والى رؤية البق يمور في شقوق الخشب ، لكنه لم يجزم بأن أحد هذين السببين كان مصدر كدره ، ولا كذلك خيبة توقعه أن تصعد ايفيت اليه ، كان البقيون أو الهلاميون من الناس يبعثون شعورا مرضيا فيه ، شعورا محزنا لانه لايستطيع شيئا تجاههم ، ولانهم لا يذوبون في الشمس ، ولان هذه الشمس غير ساطعة أصلا ، فهم يرتعون في ظلمة تقيهم التفسخ ، بما فيها رطوبة حاضنة لجميع الزواحف السامة ٠

غادر الخوان بحركة عصبية ، مدفوعا بهياج نفسي مكبوت ٠ راح في الغرفة وجاء ٠ توقف ٠ استأنف السير ، تذكر كلمات

السيدة زكية • لعن نفسه لانه تبسط معها في الحديث ، وقرر آن يكون لطيفا وحذرا في علاقاته مع أهل البيت •

كانت الشمس تستلقي أشعة حريرية وهاجة على البحر • كانت ساطعة ، محرقة ، حقيقية ، ولكنها لا تبلغ كل الزوايا العفنة للحياة الجاريــة • ان « الهلاميين » يتحجبون منها في الظل • لا يتعرضون لها وهي لا تطالهم • وحتى اذا غادروا آوكارهــم ظللتهم الشماسي في الطرقــات • يسيرون وعلى رؤوسهم مظلات غير مرئية • انهم بق ينتشر في الظلمة ، فاذا سطع الضوء اختفوا ، ولقد يدركون ويبــاد بعضهم ، لكنهم يتناسلون ويتكاثرون •

تصور ، بعدئذ ، بقة تسير في الشارع • تسير مظللة محمية • وتساءل : من الذي يبسط ظله على بقة ؟ انهــا بقة أكبر ولا شك • البق يحمي بعضه بعضا ، ومن العبث مكافحته بغير الحرق • ان تحرق كل الاخشاب البقية دفعة واحدة ، وندع النار تتعالى كما في ناقلة بترول تشتعل في عرض البحر •

لاب في الحيز الضيق للغرفة الخشبية التي يعكس سقفهــا التوتيائي وقدة الشمس المتلظية في الخارج ، ولكي يستروح النسمات التي تسعف في تبريــد جسمه المحرور ، هــرع الى

النافذة ومد رأسه باتجاه البحر ، وشرع يتابع باخرة ترسل دخانا وهي تخرج من الميناء الى الافق المائي الذي تنتهي عند تخومه حدود الرؤية • ظل يتابع الباخرة حتى صارت نقطة سوداء مستطيلة وبعيدة ، وتفرق الدخان الذي تنفثه وتصاعد ليلتحق بالغيوم الرقاق التي تتوزع في الفضاء المائل جهة الافق •

ان للباخرة رحلة تتوقف خلالها في موانيءكثيرة ، وللانسان أيضا رحلة يتوقف فيها في موانيء كثيرة • وكما الباخرة تذهب وتجيء ، في رحلة المبتدأ والمنتهى ، وتمر بموانيء عديدة مرات عديدة . كذلك الانسان يفعل • عليه أن يقوم برحلة الحياة ، وأن يمتليء بأشياء ويفرغ أشياء ، أن يأخذ ويعطي ، أن يكون نافعا على نحو ما ، وقد آمن هو بهذه الضرورة ، ولاجلها عمل ويعمل ، تشرد ويتشرد ، ولسوف يتابع الطريق ، اذ لا طريق غيره ، ما دام لا يريد أن يكون بقة تلطو في ثقوب الاخشاب العتيقة في النهار لتخرج فتمتص الدماء في الظلمة •

وقال في نفسه : « ها أنا في مرفأ جديد من رحلة الحياة المتعددة المرافيء • انني أرسو بانتظار الابحار • أرسو مضطرا حتى تسنح فرصة السفر ، وحتى تعود الجريدة التي أعمل فيها الى الصدور ، وتكف الملاحقة بحقي • حكم حسني الزعيم

كان انقلابا مفاجئا لم يتوقعه أحد ولم تعرفــه سورية قبل الآن ·· ترى الى أين يصل الوضع ؟ أتكون هذه بداية المسبحة، وتكر حباتها بعد ذلك بالتتابع ؟ هذا الانقلاب رد فعل للنكبة ، فما هي ردود الافعال التالية على رد الفعل هذا ؟ » ·

اختفت الباخرة نهائيا عن ناظريه · ابتلعها المجهول المائي الذي تمخر عبابه الآن ، وهي تتهادى تحت السطوع الشمسي لرحلة الصيف العذبة في البحر · كل شيء هادىء حولها ، السماء والماء والفضاء الرحب الذي ينداح على مد النظر · وكل شيء هادىء حوله · حي الزيتونة ينام في النهار ويستيقظ في الليل ، والابنية الشاهقة ذات الشرفات كالرفوف ، والنوافذ كالعيون المبعثرة في جسم هيكل بالغ الضخامة يجللها صمت مريب ، قائظ ، تعب ، مثل كل الاشياء في المدن الكبيرة ، وعند العصر يستفيق الحي رويدا رويدا ، يتمطى ، يتثاءب، وينفض النوم عن عيون أرهقها السهر لتعاوده من جديد · وفي الليل تسطع الاضواء وتعلو الضجة ، وتعمر الطرقات ، وتبدأ حياة جديدة، حافلة ، كالكرنفال في أكثر مواسمه اقبالا ·

فجأة ، على السطح المجاور ، ظهرت فتاة · ارتد الى الداخل كيلا تراه · تكون عادة في ثيــاب البيت · تنشر الغسيل أو تجمعه أو تسقي الازهار · في الأصائل فقط تبدو في زينـــه

كاملةوهي تتنزه،وتطل من عل ّ على الشوارع والابنيةالمجاورة • ربما تراقب مرور شخص ما بعينه ، شخص عزيز قضت النهار تفكر به • ما أسعد هذا الشخص اذن • سيمر وينظر اليهـا فتلتقي العيون في نظرات مخطوفة ومبهجة • يخفق قلب لقلب . وتبوح العيون ، وتومىء حركات الايـدي في تلويحة كخطف المروحة ، ثم يذهب ويجيء وتنتقل هي من طرف الى طرف على السطح ، وينتظم الجسدين سلكان من ارتعـاشة الحب والشباب ، الارتعاشة التي تختزل كل فرحة اللقيا وكل شوقها أيضا •

كانت النزهات التي تقوم بهـا هذه الفتاة على السطح وتمتد حتى الغروب ، مبعث راحة نفسية لابراهيم • في هذه الحال كان ينسحب الى غرفته حتى لايعكر عليها هناءتهاوحريتها في التصرف • وبكثير من المودة كان يتابع حركاتها التي تشبه حركات فراشة في حقل هي وحدها السارحة المارحة فيه • لم يكن يحس تجاهها بأي احساس سيء • براءتها لجمت نوازعه ، وظهورها على السطح كان انساً له ، اذا افتقده يوما استشعر بنقص هام ، وبفراغ ووحشة •

وليس جمالها وحده ، بل عذوبتها أيضا ، كانت تملأ نفسه بالرضى • انها أشبه بطالبة ثانويـة ، نضجت قبل الأوان ،

لكنها احتفظت بكل مرح وعفوية الطالبة . وقد ذكرته بأخته ، وبشيء عزيز عليه الى درجة أنه كان مستعدا الى اغماض عينيه بنشوة وهو يستعيد صورتها في خاطره • وكان يكفيه أن تكون جارته ، لكي يتذوق حلاوة علاقة انسانية ذات نكهة خاصة ، كتلك التي تنشأ بين انسانين غريبين ومن بلد واحد • وقد رغب أكثر من مرة أن يتفحص هذه العاطفة التي نشأت لديه تجاه الفتاة ، فردها حينا الى وضعها الطبقي المماثل لوضعه كما يظهر من بساطة ثيابها ، وردها حينا آخر الى كونها من عائلة عمالية بدليل ألبسة العمل الزرق التي تنشرهـا على السطح ، وعزا هـذه العاطفة الى جو البراءة التي تنــد عن حركات الفتاة وسكناتها، في عالم حي الزيتونة المزيف والموبوء، ثم صرف النظر عن هـذه التحليلات التي لا طائل تحتها ، واكتفى بهذه المتعة الروحية التي يبعثها ظهورها ، وجهد كيلا تراه ، بعد أن لفتها وجوده في الغرفة ، وبعد أن التقت عيناهما مرة ، فظهر على الفتاة الحرج والضيق •

« آنا مسافر عابر -- قال في نفسه -- ومن كان في مثـل وضعي ، لا يطمح الى اقامة علاقة مع أي من الذين يصادفهم في المرفأ الذي يمر فيه • يكتفي بشراء باقة زهر ، ويعود الى متابعة السفر • صحيح أن مكوثي هنا طال ، وها هي ثلاثة

شهور تنقضي وأنا أعلل النفس بالعمل أو العودة ، ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق • لقد رفضت الصحف التي قصدتها أن تستخدمني ، ودار النشر التي حاولت التعاون معها أعطتني كتابا للترجمة ، وأنا أعمل فيه بصعوبة ، وفي كل صفحة عليّ أن أعود الى القاموس مرات عديدة ، مع قلة ثقتي من انطباق المعنى بين ما أترجمه وبين الاصل ، وهذا ما يسبب لي الانزعاج ، ويمنع اندماجي في العمل ورغبتي فيه » •

أنهت الفتاة عملها على السطح وهبطت الدرج كما صعدت • مسكنها في الطابق الاول ، وقد عرف ذلك من اطلالة عبر النافذة ، وسيكون عليه أن ينتظر المساء ، لتصعد ثانية في نزهتها المعتادة أكثر الايام •

استأنف ابراهيم عمله في ترجمة الكتاب ، لكنه سرعان ما اطرحه وعاد الى النافذة ، يحدق في السماء الصافية ، سابحا مع غيوم صيفية رقيقة تنحدر محمولة مزقا على أجنحة ريح رخاء الى الافق الطحيني الذي يرسم دائرة عريضة عند ملتقى الماء بالسماء •

• • •

ومضت الايام على هذا النحو • • •

مضت كما كانت ، وكما ستكون طوال اقامته هنا ، سوى أن زيــارات الست زكيــة الى السطح تكاثــرت • تجاهلــت موضوع الانتحار الآن • قام في ذهنها أن ابنتها ماغي قد وقعت على العريس المطلوب ، لذلك فهي لا تفتأ تتحدث عنها، وتطري قناعتها وصبرها ونظافتها وجلَدها في الشغل ، وبنفس الحرص تتجنب الحديث عن ملاحتها •

وبدفع منها ولا شك ، زارت ابنتها ماغي السطح أكثر من ذي قبل • كانت تتعثر وهي تتقدم من الدالية التي يجلس في فيئها ابراهيم ، كأنما تطأ أرضا وعرة ، وكانت تسلم في حياء واطراق ، وتصمت قبل أن تسأله عن أي شيء يخطر في بالها ويكون فاتحة للحديث ، فاذا رد عليهــا بكياسة ، ودعاها الى الجلوس أسدلت فستانها على ركبتيها المضمومتين ، وقعدت خفرة ، كأنها تدخل أول امتحان في اقامة علاقة مع شاب •

لقد كانت ، فيما يبدو من كيانها المتهدل ، تعاني من شعور حاد بالنقص بصفتها أنثى ، ومن شعور أكثر حدة بصفتهــا قبيحة • انها أكبر من أخيها الوحيد ، ولا شك أن السيدة زكية ، عندما رزقت بهذا الولد المدلل ، المفتون بكل ممثلات السينما وكل فنانات حي الزيتونة على السواء ، قد مارست كثيرا من التمايز بينها وبين شقيقها ، وأدخلت في روعها أنها أقل شأنا

من الصبي ، وأنه يفوقها حظوة وقدرة وشأنا في كل شيء ، وجاءت الدمامة الطبيعية لتعمق هذا الاحساس وتصادر قابلية المواجهة عندها •

وفي شيء من الأسى لحاله وحالها معا ، كان ابراهيم يرنو اليها مشفقا ، مستغربا لعبة الام في أن تفرض علاقة بينهما ، لمجرد تقديرها أنه في وضع سيء ، يمكن معه أن يقـدم على الزواج من ابنتها هذه التي تدفعها الى هذا الموقف دفعا فتعمق احساسها بالاحباط • ان السيدة زكية ، بطبيعة العلاقة النفعية لافراد عائلتها ، والطبيعة النفعية للحي بأكمله ، تتصور أن تلك هي كل عملية الحياة وكل طابع السلوك الاجتماعي ، وان مجرد عوز الانسان كاف لان يدفعه الى قبول ما لا يقبل لو كان في وضع أفضل ، وهو لا يلوم الفتـاة ، ويعذر الام ، لكنه يرفض عقلية التاجر الصغير هذه ، في تصريف سلعة معطوبة للتخلص منها بأي شكل •

لقد آلمه ذلك ، لكنه كان واقعا ، وضد هذا الواقع يكافح ، ولكم تمنى لو استطاع أن يشرح المسألة للفتاة ، وأن يدعوها الى رفض تصرف أمها ، والى النظر للحياة بعين أخرى •

واذ تطول جلسة ماغي ، ويطول الصمت ، رغم المجاهدة

على قطعه ، كان يؤنب نفسه على هذا التصرف الأخرق ، ناسيا هو الآخر أن السبب في ذلك لا يعود اليه ولا اليها ، وانما الى فقدان اللغة المتبادلة بينهما • ان حديثا لا ينطلق من الاشياء الخاصة ، بين فتى وفتاة ، لا يمكن أن يكتسب الحرارة ، ولا أن يتطور الى الاشياء العامة •

وكانت شقيقتها المتزوجة تصعد الى السطح مرة أو مرتين في اليوم ، واذ ذاك يبتسم كل منهمـا للآخر دون أن يسمح ابراهيم للعلاقة أن تتقدم بالاتجاه الذي يخشى أن يتورط فيه ، ودون أن تسعى الفتاة الى دفع العلاقة بهذا الاتجاه الخطر • لقد كان بالنسبة اليها مشروع صهر للمستقبل ، وهذا ما لجم تلك العاطفة التي كانت قمينة أن تتكشف عنها حياله •

الأصائل وحدها كانت تحمل اليه العزاء والنسيان • تميل الشمس الى الغروب ويبترد الجو ، والبحر أزرق رحيبا حافلا بالنداءات يتجلى لناظريه ، والحي تعاوده الحركة ، ويكفيه أن يذهب ويجيء على السطح ليستمتع ببهجة الآخرين ويشارك فيها عن بعد •

وفي الأصائل كانت تصعد فتاته الى السطح الآخر المجاور ، فينسحب الى غرفته ، ويتابعها منها بكثير من الشغف والراحة ،

وقد درجت ، في الآونة الاخيرة ، على قطف وردة تحملها في يدها ، ورآها مرة تشكلها في شعرها ، استجابة لصديقها الذي يمر في الشارع ، أو ربما ارضاء لنزعة التجمل التي تعبر عن نفسها بهذه الطريقة الماتعة والتي كان يهواها ويحبها الى درجة الخدر .

على أن فتاته فاجأته ذات ضحى بحركة كشفت له عن أن حيله في التخفي لم تكن تنطلي عليها . كانت تعرف أنه هناك ، وأنه يراها ، ويتابعها ، ولم تكن منزعجة من هذا كله بالشكل الذي تصور .

نادته من طرف السطح فجأة . كان يعمـــل ولم ينتبه الى صعودها ، وقد حسب ، لأول وهلة ، أن النداء موجه الى سواه ، لكن الفتاة كانت تنظر اليه عبر النافذة وتخاطبه مباشرة .

ـ أنت ، يا سيد ، لماذا تفعل هذا ؟

اقترب من النافذة وقد بوغت بالسؤال وخافه :

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت . .

ـ وماذا أفعل ؟

ــ ألست الذي يسكن هذه الغرفة ؟

فكر قبل أن يجيب ، مستغربا أن تحقق معه على هذا النحو وفي أول تخاطب بينهما •

ــ نعم ، أنا الذي يسكن الغرفة ، ماذا تريدين ؟

قالها بجفاء ، مستنكرا برغمه أن يتدخل أحد في شؤونه أو يفرض نفسه وصياً عليه •

ــ لماذا تلقي بالنفايات الى الزقاق تحت نوافذنا ؟

ــ أنا لا ألقي بأية نفايات •• أنت مخطئة •

ــ لست مخطئة •

ــ وما هو دليلك ، هل رأيتني أفعل ذلك ؟

ــ أنا لم أرك ، ولكن من غيرك يلقي بعلب التبغ الفارغة ، وأعقاب السكاير ؟ كان يجب أن تلقيها في سلة المهملات لا زقاق الجيران •

بهت لهذه التهمة • لم يكن يصدق أن هذه البراءة تعمد الى هذا الظن • وهو الذي كان ينطوي لهـا على أقصى المودة ، تجبهه بهذه التهمة الظالمة الآن •

تفرّس فيها ليكتشف ما وراء كلماتها • وحاول أن يحزر ما وراء لعبتها هذه ، ثم قال بجدية وحزم :

ـ هل أنت واثقة مما تقولين ؟

ـ كل الثقة !

ـ واذا أثبتّ لك أنك على خطأ ؟

ـ كيف ؟

ـ أنا لا أرمي بعلب التبغ وأعقـاب السكاير الى الزقاق لسبب بسيط ، هو أنني لا أدخن ••

ـ بلى تدخن •• رأيتك تدخن على السطح ••

ـ ربما حصل ذلك •• ولكنني الآن لا أدخن •

ـ كيف ؟ تركت التدخين ؟

تنهد وهو يثبت نظراته فيها • كان يعز عليه أن يقول لها الحقيقة ، ولكنه مضطر لاثبات براءته فقال بأسى :

ـ لا •• لم أترك التدخين •• ولكنني ••

وسادت فترة صمت ، اغتصب بعدها الكلمات ليقول :

ـ لا أملك ثمن التبغ ، صدقيني ، ولهذا لم أدخن منذ شهر وأكثر •

واستدار مبتعدا ، شاعرا بالاساءة الى كبريائه بهذا التصريح الذي كان عليه أن يحجم عنه • غير أنه ، بعد ظهر ذلك اليوم بالذات ، عندما عاد الى غرفته من جولة في البرج ، وجد في أرض الغرفة علبة تبغ ، ألقتها جارته من النافذة ولا شك •

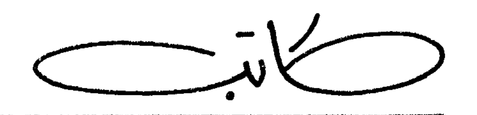
رفع العلبة وقبّلها ، داعبها بمودة وحنان ، فتحها فتناول سيكارة وأشعلها ، ثم استلقى على الخوان شاعرا أن في هذه الدنيا علاقات انسانية رائعة ، قد لايتوقعها المرء ، ولا يعرفها الا عند التعبير عن نفسها ، وبذلك تترسخ ، على مر الايام ، هذه الثقة بالانسان ، الكائن الذي يجعل من المشاركة ، في أية صورة جاءت نسيج راحة للمتعبين •

ومن جديد تناول علبة التبغ وقلّبها ، وقال في نفسه : « هذه ليست رسالة ، ولكن كم من الكلمات الطيبة تحمل ؟ وهي ليست وردة كالتي شكلتها في شعرها ذلك الاصيل ، ولكن في معناها شذى الورود جميعا •• وربما لم تفكر الفتاة بكل هذا ، وقد تكون فعلتها أقرب الى الاحسان ، لكنه احسان ليس من باب

الصدقة .. انه نفح عاطفة ، وكم في هذا الوجود من عواطف كريمة ما تزال خبيئة » .

قرر أن يشكرها عندما يلتقيان عبر السطحين ، وفكر بالكلمات التي سيقولها ، وبالطريقة التي سيقولها بها ، لكنه أبدا لم يفعل ، لم يتسع له الوقت ، لانه في اليوم التالي كان يجمع أشياءه ليرحل ، فقد انتهى عهد حسني الزعيم في دمشق ، وانتهى معه مبرر وجوده على السطح في بيروت .

١٩٧٤



الضجة منعقدة في الممر والغرف التي تطل عليه ، وكذلك الدخان والروائح الكريهة للاقذار وعرق الاجسام والرطوبة والمراحيض ، والاصوات تنبعث من وراء القضبان بلهجات ونبرات مختلفة ، وبتوسلات وشتائم متباينة ، وكلها تتجه نحو رقيب الدرك الجالس وراء طاولة في رأس الممر ، عامرة بالقيود الحديدية المتراكمة ، والاضابير والاوراق المتناثرة ، وعلى الجدار ، وراءه ، علقت بعض البنادق والقيود الاضافية .

والخطى ، على الدرج المؤدي الى الممر ، لا تنقطع ، بعضها يصعد وبعضها يهبط . ومع كل فوج يصل أو يروح تسمع قعقعة القيود الحديدية وهي تفك من معاصم السجناء ، ثم وهي تركم على الطاولة أو تبعثر بأصابع رجال الدرك لانتقاء واحد منها ، يردفها صليل السلاسل الحديدية التي تفك أو تقفل

على الابواب ، وانصفاقات الابواب الحديدية ذات القضبان المشبكة في حالتي الفتح والاغلاق ٠

هذه نظارة قصر العدل بدمشق ٠ وهي تتألف من عدة غرف صغيرة تشكل نصف مستطيل ، أمامها الممر ووراءه الجدار ، وقد أنارت مصابيح كهربائية شحيحة الممر ، وواجهات الغرف المعتمة من الداخل ، والمكتظة بالسجناء والموقوفين الذين سيقوا الى هنا ٠

كان الاستاذ ياسين يقبع مقرفصا في زاوية احدى هذه الغرف ، محشورا بين موقوفين ، أحدهما لص والآخر ضرير ارتكب فعلا شنيعا بأحد الغلمان ، بينما توزعت الاجسام من مختلف الاعمار والاحجام كل أنحاء الغرفة ، متلاصقة ، متدافعة ، للوصول الى شبكة الباب والاطلال منها على الممر ٠

ومن الاحاديث اللاغطة من حواليه ، عرف الاستاذ ياسين أن زملاءه في الغرفة ينتمون الى كل فصائل الاجرام ، وأن بينهم القاتل واللص والمحتال وصاحب السوابق والموقوف على ذمة التحقيق والبريء الذي أصيب بظلامة فهو محزون ، يتنهد ، وينفخ ، ويصفن ، والآخرون يتحدثون ، ويدخنون ، ويضحكون ويتشاتمون ، وكلما وصل رجال الدرك ببعض السجناء ، وكذلك كلما غادروا الممر مع سجناء آخرين الى

المحاكم أو النيابات العامة ، تتعالى الاصوات ، وتتخالط ، وتتنافس في الصياح ، طالبة ايصال خبر الى أحد المحامين ، أو تبليغ بعض الاقارب ، أو مناشدة دركي شراء شيء من الخارج، والرقيب الجالس وراء الطاولة كمدير ذي جلالة ، عبوس ومتعجرف ، لا يفتأ يصيح :

ـ كفى يا أوباش •• يا أولاد الكلب ، والله لأحطنك بالزنزانة أنت ، ولأضربنك حتى تموت أنت الآخر ، وأنت •• انتظروا العودة الى السجن وسترون •• أرذال •

ويصيح سجين لامباليا بتهديدات الرقيب :

ـ بعرضك ياسيد محمد •• قل للاستاذ عبد الستار في غرفة المحامين ••

ويصيح آخر :

ـ يا سيد مصطفى ، يا أخ ، دخيلك •• قل للاستاذ يستعجل في طلبي للمحاكمة قبل انتهاء الدوام •

ويصرخ ثالث :

ـ يا رضوان •• وحياة شواربك تسأل عن فلان في باحة الطابق الاول •• قل له أنا أنتظر الكفالة •• لا بد أن أخرج اليوم •• لماذا يؤجلون قضيتي أولاد ••

وتصرخ امرأة في غرفة توقيف النساء . وقد تشتبك مع سجينة أخرى ، وتتشاتمان ، وتتعاركان ، وتبدأ التعليقات الساخرة والبذيئة . ويتدافع السجناء على المشبكات الحديدية ليروا ما يجري ، أو ليصلوا الى أقاربهم وموكليهم في الطرف الآخر من المشبكات • والرقيب يزعق برجاله :

ـ أرجعوهم الى وراء •• أسكتوا النساء •• العمى ! حمام ! لماذا هذه الضجة ؟ سيأتي دوركم •• لا أحد يخرج الا بطلب •• حسب الاصول •

ويتراجع الذين تكلموا مع ذويهم أو موكليهم ، أو الذين تعبوا من المدافعة ، والآخرون الذين يئسوا وملوا الصياح ، فيخلون مكانهم لغيرهم ، وعلى الفور يقفز سجناء آخرون الى المشبكات الحديدية ، وتتكرر الاحداث والنداءات ، وتظل قعقعة القيود وصليل السلاسل وانصفاق الابواب الحديدية متواصلة ، طافية على سطح الضجة ، مذكرة الحشد المركوم بالغرف بجو السجن وأدواته المعتادة •

وكان الاستاذ ياسين يصغي الى كل هذا الضجيج والعراك صامتا ، سادرا في تفكير موصول ، مستسلما لوضعه كقطعة خشب تدور على فوهة دوامة نهرية •

« لقد حدث هذا صباح اليوم ، لعلي ارتكبت خطأ بالمجيء وحدي الى دائرة الامن العام • ولعلي قصرت فلم أستشر أحد المحامين ، كنت على ثقة من يسر قضيتي ، ولم أكن أعلم أن الاشياء المحلولة تتعقد هنا ، أنا لم أرتكب أي ذنب ، وقد شرحت هذا كله ، قلت لهم انني اضطررت الى السفر الى بلد لم يذكر في الجواز • كان ذلك بداعي المرض والسرعة ، وفور وصولي اتصلت بالسفارة وأودعتها جوازي وقدمت طلبا أرسل الى دمشق وعاد بالموافقة على اضافـة اسم البلد فأضيف الى جواز السفر • فلما عدت أبلغوني أن ثمة بلاغا في حقي بسبب هذه المخالفة ، فذهبت للاستفسار ، وهناك استكتبوني تقريرا بالحادث ، فكتبته حسب الاصول، وشرحت وضعي ، واستأذنتهم بالانصـراف فطلبوا مني التريث ، ومضت سـاعـة ، فجددت الاستئذان بالانصراف وجددوا أمر التريث ، وأخيرا أبلغوني أنني موقوف ، وصاروا ينظرون اليّ شزرا ، ثم أصعدوني مع التقرير الى الطابق الاول، وهناك سجلوا شيئا في دفتر ، وطلبوا شرطيا أمروه بأن يضع القيـد في يدي ويسوقني مع التقرير والدفتر الى نظارة قصر العدل » •

« احتججت على هذه المعاملة • • •

ـ سيكارة أستاذ !

كان اللص يمد يده ذات الاصابع المدببة ، فناوله سيكارة ، وأشعل لنفسه واحدة • وازداد الازدحـام في الغرفة بقدوم سجناء جدد ، فانكمش الاستاذ ياسين على نفسه أكثر ، ليفسح المجال لسواه •

وتعالت الضحكات من حوله عاتية فاجرة • كان رجل يوجه كلامه الى الضرير عن يمينه قائلا :

ـ ألم تتب الى ربك وتقلع عن ملاحقة الغلمان ؟

قال الضرير :

ـ يلعن الشيطان ••

ـ سافـل !

فنبر الضرير :

ـ لماذا تشتمني ؟ مكتوب عليّ •• كله بسبب العاهة •• وماذا تريد أن أفعل اذا كنت لا أستطيع أن أتزوج ؟

قال أحد المتحلـّقين :

ـ تدبّر أمرك ••

ـ كيف ؟

ــ تريد أن أعلّمك ·· بطريقة مريحة ·

ــ وماهي هذه الطريقة ؟

فقال اللص كلاما ضحك له المتحلقون على الضرير ، وقال رجل يمد رأسه من بين الأرجل :

ــ سيكارة أستاذ ·· حسنة عن شبابك ؟

وقال اللص :

ــ لا تصدق هذا الاعمى أستاذ ·· ابن كلب وكذاب ·· له سوابق بعدد شعر الرأس ، هذه سوسته ··

نهض الاستاذ وقد أحس بالاختناق من تكاثف الحلقة حوله، ومضى الى الزاوية الاخرى التي كان يستلقي فيها رجل شاحب الوجه ، رمادي اللون ، له لحية طويلة ، وبشرة عنقه داكنة ، وبنطاله ممزق عند الركبة ، وهو يحاول أن يفتح عينيه ليستوعب ما يقوله رجل آخر ، انحنى عليه ·

كان هذا الرجل يلبس شروالا أسود ، وقد بدا أكثر صحوا من زميله ، فهو يوصيه قائلا :

ــ اذا سألك المحقق من دكها(١) لك ؟ قل لا أعرف ·· هي

---

(١) دك السيكارة وضع الحشيش فيها ·

كانت مدكوكة ·· شوّي ؟ هي كانت مدكوكة ؟

فيجيب الرجل المستلقي والمجذوب من أثر الحشيش :

ـ هي كانت مدكوكة !

ـ ايوه ·· بري عليك ·· هي كانت مدكوكة ·· شوي ؟

ـ هي كانت مدكوكة !

ـ هه ·· امسك هذا الحرف ·· لا تذكر اسمي ·· قل له هي كانت مدكوكة ·

فيهوم الحشاش ويجيب :

ـ هي كانت مدكوكة !

وقرب الزاوية كان رجل حاقن يحاول أن يشعل عود ثقاب ليهتدي الى فجوة مظلمة في الجدار، عرف الاستاذ أنها المرحاض، لان البول كان يجري منها ، والأقـذار تطفو عليها ، وعلى الموقوفين آن يتداولوها الواحد بعد الآخر ، وكذلك فعل هو ، وقد زكمته رائحة نتنة فهرب الى وسط الغرفة ، ثم عاد الى مجلسه قرب الضرير ، وأطرق يفكر في هذه الحال التي وجد نفسه فيها فجأة ·

« الموظف في الامن العام لم يشأ أن يصغي اليّ » قلت له

من أنا ، أخبرته أنني كاتب معروف ولست بلص أو مجرم ، ولا تليق بي هذه المعاملة القاسية، رجوته أن أذهب مع الشرطي الى النظارة بغير قيد ، فأطبق الدفتر ، وسلمه للشرطي وهو يأمره :

ـ ضع القيد في يده ٠٠٠ هذا الصنف أخطر من غيره ٠٠ قال كاتب قال ! مرحبا سيدي ! » ٠

« وضع الشرطي القيد في يدي وهبطنا الدرج ٠ أراد شراء شيء من حانوت تحت فندق سمير اميس ، فاجتاز بي الشارع ، وهو يمسك بطرف السلسلة الحديدية المتدلية من قيدي كيلا أهرب ٠ وربما أراد اكرامي فمضى بي في الشارع العام العريض ، من أمام مبنى البريد الى محطة الحجاز . ثم انعطفنا الى شارع النصر ، وركض وراءنا بعض الاطفال . وتوقفت سيدتان ونظرتا الي بأسى ، كذلك التفت بعض الفضوليين الى وراء وتابعوني بأنظارهم ، فمشيت غير مبال ٠ بل ان تراجيدية الموقف انقلبت في ذاتي الى كوميديا ٠ كانت المهزلة من النوع الذي يجعل الانسان يلعن نذالة الايام ٠ وأمام مبنى الهاتف صاح أحد شابين برفيقه :

ـ انظر ٠٠ أليس هذا الاستاذ ياسين !

« ولم أسمع الجواب • لكنني أدركت أنهما عرفاني ، وأن هذه الزفة اللائقة بكاتب قد كانت حافلة ، وستنتهي منذ أن نبلغ قصر العدل وأساق الى المحكمة •

« كان شارع النصر مزدحما • وكنا في الزحـام نصطدم بالمارة ، وقد فهمت الآن سر امساك الشرطي بسلسلة قيدي ، فبين هـذه الجموع ، وفوق هذه الارصفة المكتظـة بماسحي الاحذية وبسطات البائعين ومواقف الباصات ، لا بد للشرطي الذي يسوق سجينا من الاحتياط • السجين بالنسبة اليه مجرم ، وكل موقوف هو سجين ، وليس له أن يسأل عن الجرم أو يقدر مكانة صاحبه • وظيفته ألا يدع الموقوف يهرب ، وأن يمسك بسلسلة القيد جيدا ، ويكون يقظا تماما •

« وعندما دخلنا قصر العدل ازدادت النظرات تركيزا عليّ ، كنت أحسب أنه يسوقني الى النائب العام أو المحاكمة ، لكن الشرطي هبط بي درجـا عريضا يتفرع الى يسـار المدخل ، واستدار مرة الى اليمين وأخرى الى اليسار ، نزولا الى القبو ، فاذا نحن في الممر ، أمام طاولة الرقيب ، حيث نزع الشرطي القيد من يدي وألقاه على الطاولة ، ودفعني الى داخل هذه الغرفة ذات الواجهة الحديدية المشبكة •

« حاول السجناء ، فورا ، أن يعرفوا مشكلتي • انهم بشوق

دائم الى معرفة قضية كل وافد جديد فقلت ان قضيتي بسيطة ، مجرد مخالفةجواز سفر ، لكن النظرات نمّت عن عدم التصديق . السجناء الجدد لا يكشفون عادة عن جرمهم بسهولة ، أكثرهم يخفي السبب الحقيقي .

« مضيت الى الزاوية ، بين اللص والضرير ، وسألت بعض من حولي عما اذا كانوا سيتأخرون في طلبي ، فقيل لي : « أنت وحظك .. وهذا متوقف على مكانة المحامي الذي يدافع عنك » . سعيت عندئذ للاتصال بالذين في الممر ، عسى أن أجد بينهم من يعرفني فيبلغ أهلي أو أحد المحامين ، لانه اذا انتهى الدوام ولم يبت في أمري ، فسأساق الى السجن وأقضي ليلتي فيه .

« مكثت في غرفة التوقيف ثلاث ساعات ، وفي نحو الساعة الواحدة رأيت أحد المحامين من المعارف فندهته . تعجب اذ رآني موقوفا . أقبل عليّ بلهفة ، وكان كريما وذا عاطفة وافرة فقبّلني من وراء القضبان . سألني عن قضيتي فشرحتها له بكلمات ، وكان جوابه انها مسألة لا تستحق القلق ، وستنتهي بغرامة نقدية زهيدة ، فور مثولي أمام الحاكم . وأنه سيسعى لأطلب الى المحاكمة بسرعة ، وسيكون معي .. واستفسر عما

اذا كنت بحاجة الى تبغ أو طعام ، وسمعته يكلم رقيب الدرك وهو يشير اليّ قائلا :

ــ الاستاذ ياسين ·· الكاتب المعروف ·

لم أسمع جواب الرقيب · لعله اكتفى بالنظر اليّ فقط · وانصرف المحامي وهو يبتسم لي ، فشعرت بالراحة ، وأقمت أرقب لحظة المناداة عليّ لأصعد الى المحاكمة » ·

الضجيج ، اياه ، توالى ، وتناثرت ، من اتجاهات متعددة ، كلمات في وقت واحد · كان النهار يتقدم ، وصبر السجناء ينفد ، والشتائم والنداءات من القواويش تتكاثر ، وكل شيء في اللوحة العجيبة المتنافرة يتجسد على نحو أكثر بروزا ·

ومع تقدم الوقت طفق القلـق يساورني أنا أيضا · كنا نتناقص الآن تدريجيا ، وعندما بلغت الثانية بعد الظهر لم يكن قد بقي في غرفة التوقيف الا بعض الرجال ، بينهم اللص ، والضرير ، والحشاش الذي ما فتىء صاحبه يُحفظّه الامثولة التي عليه أن يرددها أمام الحاكم ·

وكان الغلام الذي تعرض لفعـل المنكر من قبل الضرير يجلس قبالتنا ، عند قدم الجدار المواجه ، يتفرج ويسمع دون أن ينبس ببنت شفة ، ويحاول تجنب تحرشات الآخرين به ·

كان مليح الوجه ، قذر الثياب والهيئة ، يبدو عليه التشرد ، وليس في قدميه حذاء ، وبنطاله الاسود قد دعك دعكا لكثرة ما نام فيه وسعى دون أن يغيره ٠

وعندما بلغت الساعة الثانيـــة وعشر دقائق ، نودي على الاستاذ والغلام ، واللص ، ورجل آخر ، دفعة واحدة ٠

خرج الفتى من الباب الحديدي الذي فتح ، ومد يده الصغيرة اللطيفة الى القيد ، وراح يتطلع بنظرات وجلى ملهوفة الى من سيكون زميله فيه ٠

وصاح رقيب الدرك باللص :

ـ أنت تعال هات يدك ٠٠

قال اللص :

ـ فشر ٠٠ كل شيء ولا هذا ٠٠ أنا أضع يدي بيد ٠٠٠

فنادى رقيب الدرك على الرجل الواقف قرب الباب :

ـ تقدم أنت ٠٠ ماذا تنتظر ؟

قال الرجل باستنكار :

ـ أنـــا ؟ لا والله ٠٠ حلو ٠٠ يتهمونني بـــه ، وتسوء سمعتي ٠٠

عندئذ التفت الرقيب الى الاستاذ وقال :

ـ اذن أنت ٠٠ تعال بسرعة ٠

قال رجل من الموقوفين مذكرا رقيب الدرك :

ـ ولكنه أستاذ ٠٠ أما سمعت المحامي ؟

قال الرقيب بلهجة ساخرة :

ـ مرحبا أستاذ ! عندي ، هنا ، محابيس و بس ٠٠ تعال! تقدم ٠٠

تقدم الاستاذ بغير كلام ٠

مد يده فوضعوا فيها القيد مع الغلام الذي راح ينظر اليه نظرات تعبر عن نوع من الامتنان الغامض ٠٠ وساقهما الدركي أمامه ، فصعدا الدرجات واحدة واحدة ، والعيون من حولهما تحملق في وجهيهما ، وفي باحة الطابق الاول من قصر العدل تفّ رجل على الارض اذ رآهما ٠٠٠ وقال آخر :

ـ ما شاء الله ٠٠ أفندي ولص ٠٠

فأجابه الاول :

ـ يا ريت ٠٠ الكلب أرذل ٠٠ ألا ترى الطفل الذي معه ؟

١٩٦٩

نـــار !

الدنيا غائمة ، ونثار ثلجي خفيف يتساقط ، ومياه صلصالية في الأزقـة خارج المطبعة ، وفي داخلها رجال يلفون رؤوسهم بشملاتهم ، وينفخون رؤوس أصابعهم كلما أحسوا بتجمدها ، لتطاوعهم في التقاط الحروف من المربعات الخشبية ٠

وعلى امتداد الزقاق ، المنحدر بمحاذاة بناية العابد ، من شارع النصر الى السنجقدار ، تنفتح الحفر في الارض الترابية ، وتتجمع مياه الشتاء ، وتتعجن الوحول ، بحيث لم يبق لـ « أبو الطفي » سوى الشريط الضيق اليابس من هذه الارض ، الواقع تحت نوافذ قبو المطبعة ٠٠٠ انطرح عليه آخر الليل ، طويل الذقن ، قذر الشعر ، ممزق الثياب ، تبرز من شقوقها أطرافه المترهلة ، ولحمه المتقع ، الشبيـه ببشرة وجهه الضاربة الى الزرقة ٠

وقف عديّ ، عامل المطبعة ، على رأس « أبو الطفي » وصاح به :

ـ يا أبو الطفي ! الثلج ! انهض ٠٠ طمرك الثلج !

ــ ...

ــ يا أبو الطفي ! هيه ! الثلج !

ــ ...

فانحنى عديّ وأمسك به من كتفه وهزه، لم يزد أبو الطفي على أن تأوه ، وارتعش ، وعاد فتكور ، وظل في غيبوبته ·

وقال عدي في نفسه : « أبو الطفي لا يحس بالبـــرد ولا الحر » ·· وبعد أن تأمله مليّاً أضاف : « أبو الطفي سعيد بهذه الغيبوبة بلا شك ! » وانحنى مرة أخرى وهزه وصاح :

ــ أقول انك سعيد الآن ، أتسمعني ؟

ولم يأته جواب !

فقال عدي في نفســـه : « أبو الطفي لا يسمع ·· شارب الحشيش لا يسمع ! » وهزه للمرة الثالثة وصاح :

ــ من الافضل ألا تسمع ·· ابق غائبا ، ولكن ابق غائبا حتى النهايـــة ·· فهمت ؟ ابق مخدرا ، حيا ميتا الى نهايـــة حياتك ·

ودخل عديّ المطبعة فجاءه ببضع جرائد ، وبعد أن أزال

الثلج عن رأس « أبو الطفي » وصدره ، غطاه بها ، وتناول الحصى وثقل بها الجرائد ، وعاد الى المطبعة •

كان قبو المطبعة منخفضا ، فوقف عدي في أول الدرج كأنه نسي شيئا في الخارج، ثم استدار فأغلق الباب.وانحدر الى جوف القبو المستطيل المعتم ، حتى اذا صار في منتصفه ، زكمتـــه الرطوبة الغضة ، وملأت أنفه رائحة الورق والحبر والغراء والزيت ، ونتن جرذ أو فأر ميت •

كان القبو معتما ، والرؤية غير ممكنة • ولهذا تدلت من بعض جوانبه ، فوق صناديق الحروف ، مصابيح تمكن العمال من تمييز أشكال الحروف الرصاصية الدقيقة التي فقدوا حدة أبصارهم في محاولة لا تنتهي ، لجمعها صباحا وتفريقها مساء ، ثم جمعها وتفريقها ، الى آخر العمر •

وعلى الجدران الملطخة بالحبر ، ألصقت صور المرشـــحين للانتخابات النيابية ، وفوق صناديق الحروف ، بـــدت صور مقصوصة من الصحف ، لفنانات في أفلام دارجة •• وثمة صورة طفل لصقها أحد العمال ، وساعة جيب معلقة بمسمار ، وفي موضع بارز ، مواجه للصناديق ، صور عمال اشتغلوا في هذا القبو وماتوا فيه ، تحتها هذه العبارة : « شهداء المهنة ! » •



خلع عديّ ثيابه وارتدى لباس العمل ، وذهب الى الصندوق وهو يفكر ب « أبو الطفي » فقال له أبو العز ، رئيس العمال ومرتب الجريدة :

ـ تأخرت يا عديّ .

ـ لم أتأخر .. دخلت وخرجت .. أخذت بعض الجرائد وغطيت « أبو الطفي » .

ـ أنا أقول تأخرت .. ولماذا تغطي « أبو الطفي » دعه يفطس .

ـ ألم يكن زميلنا يوما ؟

ـ كان أو لم يكن .. أنا أقول : تأخرت !

فقال أحد العمال :

ـ أبو العز لا يلاحظ تأخرنا الا في الصباح .

ـ ومتى تريد أن ألاحظه !

ـ في المساء .. حين نتأخر لأشغال طارئة ، مجانية .

وقال عدي :

ـ نحن نأتي مع الفجر ولا نتصرف الا مع المغيب .

ــ ألا يرضيك هذا ؟

ــ لا يرضيني ·

ــ أضرب ·· أو قل هذا لصاحب الجريدة ·

قال عدي :

ــ أتحسبنا نخاف ؟

ــ أنت لا تخاف ، ولكني ، أنا أبو العز ، لا أخاف أيضا ، تذكر ذلك يا عدي ·

ــ لا حاجة لتذكيري ، أنت تعرف أنني لا أنسى ، أما أنت ·· تذكر أنك ، مهما تزلفت لصاحب الجريدة ، من العمال ، يجب أن تكون مع العمال لا ضدهم ·

ــ أفهم واجبي بدون هذا الكلام ·

ــ تفهمه ولكن ··

ــ ماذا ؟!

ــ أنت تعرف !

ــ وأنت تعرف أيضا ·· لسوف نتحاسب يا عدي ·· بعد الشغل نتحاسب !

وقال عدي متحديا :

ـ نتحاسب حين تريد .

★ ★ ★

في هذا الوقت ، كان محمد أبو السعود ، أو الاستاذ محمد اختصارا ، قد غادر ترام المهاجرين في ساحة المرجة ، وتوقف على الرصيف ليلقي نظرة على عناوين الصحف في الواجهات ، واذ تذكر أن عليه أن يقرأ كل الصحف الصباحية ، وان يفض البريد ايضا ، اغتم وتابع طريقه الى المطبعة .

كان فاترا ، لا يستشعر رغبة في العمل ، وقد اعتاد ، مع الايام ، أن يدع رغائبه جانبا ، ويعمل طائعا ، وفي ذاته ينمو تململ عاجز ، مقهور ، لا يجد سبيلا للتعبير عن نفسه .

مرة واحدة ، وكان ذلك منذ سنوات ، بلغ تململه درجة التمرد ، فدخل على صاحب الجريدة ، وقال له بعد مقدمة اجتهد في جعلها عاطفية ، انه في وضع لا يستطيع معه الاحتمال أكثر مما فعل .

فرازه صاحب الجريدة وقال :

ـ تهددني !؟

ثم سأله بلهجة اتهام :

ـ أنت اشتراكي !؟

وبعد أن أخافه ، قال له بلا مبالاة :

ـ تريد ترك العمل !؟ أنت حر .. أنا أدين بمبدأ الحرية .. أرجوك استعمل حريتك واترك العمل .

ولم يستعمل الاستاذ محمد حريته لأنه لا يستطيع ، وكان صاحب الجريدة يعرف ذلك .. تاجر الورق يعرف ذلك . وقد انقلب ، منذ ذلك اليوم ، تمرد الاستاذ محمد الى خضوع بائس ، فقد معه الشعور بالحرية الشخصية السابقة ، ودخل مع عمله في عراك شرس ، على نحو ما يفعل الكلب مع السلسة المربوط بها الى شجرة ، ولازم هذا العراك اليائس الصامت نوع من احساس غامض بأنه سجين ، وانه محكوم بقانون غير منظور ، غير عادل ، غير قابل للنقض ، فكان يشقى بسجنه مرة ، ويشقى لأن باب السجن مفتوح ولا يستطيع الهرب ، مرتين .

هذا الاحساس بمأساته كان يعاوده منذ أن يدخل المطبعة . وقد زادته سوءا اليوم ، الصيحة الكريهة التي انطلقت من أقصى البهو :

ـ مـــواد !

تظاهر أنه لم يسمع ، فالافتتاحية والتعليقات لم تصل من مكتب التحرير وهو يقرأ خبرا لم يبت في نشره بعد ، والصوت الملحاح لا يفتأ يصيح :

ــ مواد !

وأجاب أبو العز محتدا :

ــ فهمنا !

وقال العامل :

ــ مواد !

وقال أبو العز بنبرة أقسى :

ــ فهمنا !

وسكت العامل ، وتابع الاستاذ محمد قراءة الخبر . كـان يكره صاحب الصوت ، أو يكره ، بالضبط ، كلمة مواد . ولكن كرهه لم يمنع العامل المتعطل من العودة الى الصياح :

ــ مواد يا أستاذ !

وقال الاستاذ :

ــ حلمك عليّ ، حلمك علي .

ورفع سماعة الهاتف يستعجل المواد من مكتب التحرير ، وما كاد يضعها حتى علا صوت آخر :

ـ م ٠٠ وا ٠٠ د !

وضحك الاستاذ هذه المرة للنغمة الممطوطة . وقص الخبر الذي كان يقرأه وقال :

ـ طيب ! طيب ! خذوا ٠٠ ها ٠٠

ودفع اليهم ما تجمع عنده من أخبار ، وأشعل سيكارة هي الرابعة هذا الصباح ، وانتقل الى خبر يحمل هذا العنوان « انتحر لضيق ذات اليد ! »

كان مثل هذا الخبر لا يثير اهتمام التحرير ، فهو من بضاعة «دفتر الشرطة»، الا أن خبر اليوم بدا طريفا ومفجعا: « شوهد مصطفى بن محمد عزوز الملقب بمصطو الحرستاني ، معلقا في سقف بيته بتكة شرواله . ولدى التحقيق تبين أنه انتحر لضيق ذات اليد ٠ وقد شرحت جثته وسلمت ، حسب الاصول ، الى أهله .وادخلت بنته فوزية المستشفى الوطني لمعالجتها من الصدمة التي سببتها لها رؤية والدها متدليا من السقف ٠٠ ونظم الضبط اللازم » ٠

عقب الاستاذ محمد علـى المنتحر ،وقد تخيله متدليا في فضاء

الغرفة ، أصفر الوجه ، مندلق اللسان أزرق القدمين ، وقال في نفسه : « أما كان يستطيع الانتحار في مكان آخر !؟ » وقص الخبر وأضافه الى خبر آخر صغير بعنوان « اللقمة الحمراء » ، مفاده أن مرملة انهارت على بضعة عمال فقتلت اثنين منهم ، وأدخل الباقون المستشفى قيد المعالجة ، والحادث قضاء وقدر ٠

وجاءته المواد من مكتب التحرير ، وبينها تصريح لجميل بك رئيس الوزراء ، عنونه صاحب الجريدة بنفسه على الشكل التالي « الحكومة تعلن تطبيق العدالة الاجتماعية »! والى جانب العنوان هذه الملاحظة « حرف كبير ٦٠ » !

كان تصريح رئيس الحكومة فضفاضا ، يملأ ثلاثة أعمدة ، ولن يسمع الاستاذ محمد كلمة « مواد » حتى نصف ساعة على الاقل ، وقد حان الوقت ليوصي على فنجان قهوة ، ويقوم بجولة بين العمال ، متفقدا سير العمل ٠٠ وما كاد يصير بينهم حتى سمع العامل عبد اللطيف جرجوق يتكلم دون أن يرفع نظره عن مربعات الحروف :

ـ سمعتم !؟

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء ٠

ولكنك كنت تقول شيئا ٠

ـ شاكر طلق امرأته ٠

توقف حمدي الطباع عن شد براغي الآلة الطابعة وقال :

ـ كذب !

ـ أنا لا أكذب !

ـ أنت تكذب كما تشرب الماء ٠

ـ غير صحيح ٠٠ أخباري موثوقة !

وأضاف عامل آخر :

ـ ٠٠ ومن مصادر مطلعة !

فقال قاسم السنهور وقد رفع رأسه عن صندوق الحروف :

ـ الكلام في خصوصيات الناس لا يجوز ٠٠ الاغتياب محرم دينا ٠

فرن صوت ساخر من الطرف المقابل للقبو :

ـ من أين لك هذا الورع يا شيخنا !؟

وصاح أبو العز مرتب الجريدة ، بعد أن استعاذ بالله ثلاثا :

ـ خلصنا !

قال قاسم السنهور :

ـ ورعي قديم والحمد لله .. أما أنت ..

فصاح أبو العز من جديد :

ـ خلصنا !

وقال العامل :

ـ أنا لا أكش الحمام على كل حال .

وقال أبو العز :

ـ خلصنا !

وقال قاسم السنهور :

ـ كش الحمام أفضل من السكر .

فزعق أبو العز بصوت راعد :

ـ خلصنا ! خلصنا ! العمى ! ما عدنا نخلص من شاكر وأم شاكر واخت شاكر ومتفرعاتها .

قالها وضرب صينية الترتيب الحديدية بقطعة خشبية كانت

في يده ، فطن صوت حاد في فضاء القبو • ترك دويا في الآذان ، واذ ذاك انقطع الكلام ، ولم تعد تسمع سوى تكتكة الحروف وهي تجمع في المصفات أو تنثر في المشبكات الخشبية •

★ ★ ★

وفي الخارج تواصل سقوط الثلج ، وتبللت الجرائد التي تغطي « أبو الطفي » ،وهبت رياح باردة على القبو . فقال عبد اللطيف جرجوق وهو ينفخ أصابعه :

ـ لم أعد أستطيع العمل •• متى تشعلون النار ؟

قال أبو العز :

ـ لا يوجد حطب •

ـ ولماذا لا يوجد حطب ؟

ـ لأنه لا يوجد حطب •

ـ وعلى ماذا نتدفأ ؟

ـ على الطقاطيق !

وضحك العمال ، وجحظت عينا عبد اللطيف وقال :

ـ الطقاطيق فن على كل حال •• عمر الزعني كان ينظم طقاطيق •

ـ عمر الزعني كان فنانا ٠٠

وقال عامل مكملا :

ـ ٠٠ وأنت بهيم !

فقال عبد اللطيف :

ـ لأنني أعيش بين بهائم !

والتفت الى الاستاذ محمد وقال :

ـ عدم المؤاخذة يا أستاذ !

فقال هذا :

ـ لا داعي للمؤاخذة !

وقال في نفسه « صدقت ! » ٠٠ أما أبو العز فقد انتهره :

ـ اشتغل بدون كلام وارفع لسانك عن صدرك !

كان عبد اللطيف طويلا ، نحيلا ، جاحظا ، متخلعا ، له فم مفتوح أبدا نصف فتحة ، يندلق منه لسان كالطحال ، يستريح فوق شفة غليظة بشكل غير مألوف ، فاذا ضحك ، وهو يفعل ذلك دائما ، ارتفعت شفته العليا الشبيهة بخط منحن فاستقامت وتدلت شفته السفلى حتى ليخيل الى رائيها أنهـا قطعة لحم

داكنةومستطيلة ملتصقة بفكه الاسفل، ودارت عيناه الجاحظتان في وقبيهما دورات سريعة، غير خبيثة، واهتز حاجباه الكثان تحت جبهته العريضة المنتهية بصلعة محدبة ، وارتخت يداه على جنبيه ، وفرك أصابعه الطويلة المعقوفة كالملاقط ٠

كانوا يلقبونه بالشاعر الشعبي غير المحبوب ، ولقبه خبيث منهم بكروان ، لأنه زعم أن كروان طلبت منه طقطوقة ، وقد تقبل اللقبين بغير اعتراض ، وتقبل تعريض « أبو العز » بغير احتجاج ، ولم يلبث أن قال :

ــ اسمعوا اليوم ٠٠ في التاسعة والنصف مساء ٠

ــ ماذا ؟

ــ طقطوقة جديدة ٠

فصاح أبو العز :

ــ اتركنا من طقاطيقك يا حضرة الشاعر ٠٠ خلصنا ٠٠ صار الظهر !

فاهتز عبد اللطيف ، وبلع لسانه قليلا ، ثم نسيه فانسل واستراح على شفته السفلى . وقال من جديد :

ــ لا أستطيع الشغل بدون نار •• مطبعة بدون نار ؟ برد •• أنا أبرد •• تجمدت •

قال أبو العز :

ــ لو تجمدت لخرس لسانك •

ــ وماذا يصير بحالي اذا خرس لساني ؟

ــ تموت !

وقال عديّ :

ــ تصير من شهداء المهنة !

فعلق عبد الحميد الطباع قائلا :

ــ عال •• سجلوني من شهداء المهنة اذن •• عندي تجمد في المخ •

فقال الفتى مناح :

ــ والمخيخ !

وقال عزت :

ــ والنخاع الشوكي !

وقال قاسم السنهور :

ـ والبصلة السيسائية !!

وضحك الجميع بينما قال مناح ، الفتى الاشقر المراح :

ـ يتجمد فينا كل شيء الا شيء واحد .. أنا مقبل على زواج !

فأجابه قاسم السنهور :

ـ ضع الذي تخاف عليه في بيت الفحم !

وقال عبد الحميد :

ـ واشعل فوقه النار !!

وقال مناح :

ـ سأنفذ وصيتكم يوم الخميس ، احفظوني من التجمد حتى يوم الخميس .

وضاق صدر أبو العز واربد وجهه . كان على استعداد لبلع شاربيه الكبيرين ، وحين يفعل ذلك معناه أنه سيتعارك ، وسيقذف من يعارضه بالمصف الحديدي . وكان العمال يعرفون ذلك منه ويتحاشونه .. يظلون يتجادلون ، ويتماحكون ،

ويشكون من سوء وضعهم حتى يبتلع شواربه ، فاذا فعل ذلك معناه النذير ٠

وهاهو ينذر ببلع شواربه ، ومع ذلك توقف عبد اللطيف جرجوق عن العمل وقال بتصميم :

ـ لا أستطيع مسك الحروف ، أصابعي لا تطاوعني ، تجمدت من البرد ٠

فصاح أبو العز مغضبا :

ـ البرد اليوم مثل كل يوم ٠٠ افرك أصابعك واشتغل ٠

ـ اليوم ثلج !

ـ ثلج أو غير ثلج ٠٠ اشتغل ٠

قال عدي :

ـ كيف نشتغل بدون نار ؟ واذا مرضنا ؟

ورد أبو العز :

ـ واذا تأخرت الجريدة !؟

ـ لتتأخر !

قال أبو العز متنمرا :

ـ اسمع يا عدي ! قلت لك بعد الشغل نتحاسب ، ومعنى هذا أننا سنتحاسب ·· أنا المسؤول عن صدور الجريدة ·· يجب أن تصدر في ميعادها ·

ـ اذا كنت مسؤولا عن صدور الجريدة فأنت مسؤول أيضا عن تدفئة الذين يعملون في الجريدة ·· هذا التوفير على حساب صحتنا لا نرضاه ·

زعق أبو العز :

ـ تحرض العمال !؟ أما قال لك صاحب الجريدة لا أريد حركات هنا ؟ هذه مطبعة ·· مطبعة لا مصنع ! وهذه الصورة على صندوقك !

كانت صورة مناضل نقابي معروف ، متوار عن الانظار ، مشكولة بدبوس على صندوق الاحرف الذي يقف وراءه عدي ·· وقد أحضرها ذات صباح ، وسحبها من صدره بعناية ، وأراها للعمال ، وبعد أن طافت المطبعة كلها ، هي والجريدة التي تحملها ، أعادها الى صدره بنفس العناية ، واعدا بلصقها في ساحة المرجة ولو دخل السجن ، ثم صرف النظر ، لأمر ما عن المرجة ، واكتفى بتعليقها على صندوقه ·

قال عدي :

ـ هذه الصورة ، يا أبو العز ، لا تضرك بشيء ٠٠ وكنت معتزما رفعها ، أما الآن فسأبقيها ٠٠ انها ورقة ، ورقة لا أكثر ، ولكنها كبيرة القيمة بالنسبة لي ، وبالنسبة لنا جميعا كعمال ٠

صاح أبو العز :

ـ أنت تحرض العمـــال ٠٠ والصورة هـــذه للدعايـة والتحريض ٠٠٠

ـ وعلى ماذا أحرضهم ؟ وهل يحتاجون الى التحريض ؟ انهم لا يفعلون سوى الرضوخ ، ونقابتنا شكلية حتى الآن ٠٠ انظر أبو الطفي، كان عاملا مثلنا وبعد أن شاخ صار في الشارع ٠٠ لم يصب بالسل كالآخرين ، ولكنه أدمن على الحشيش ٠٠ صار شحاذا ومدمنا ، يغيب عن الدنيا حتى لا يحس بشيء ٠٠ انــه لا يحس بالبرد ، ولذلك لا يتكلم ٠٠ اما نحن فنحس ٠٠ نريد نارا ٠٠ وهذه المدفأة للنار ، لا للزينة ، ولا لخدع دائــرة العمل والشؤون الاجتماعية ٠

قال عبد اللطيف جرجوق :

ـ هذه الدائرة مغشوشة خلقة ٠٠ نحن نشتغل بالسم ٠٠ الرصاص سم ٠ ٠وهي توصي باعطائنا الحليب لمقاومة السم ، ولكن متى ذقنا الحليب ؟ نحن نذوق فقط سم الرصاص ٠

وقال عبد الحميد الطباع :

ـ ونذوق سم البرد .. تجمدنا من البرد .. كيف نعمل بدون نار ؟

وتوقف أبو العز عن ترتيب الجريدة ، وقال بلهجة انذار قاطع :

ـ كفى ! لا يوجد حطب ولا نار .. اسكتوا واشتغلوا بدون حطب وبدون نار .

قال عدي :

ـ لن نسكت ولن نعمل قبل النار .. نحن لا نستطيع أن نعمل بدون نار .

صر أبو العز بأسنانه وقال مهددا :

ـ ستعملون بدون نار .. لا يوجد حطب .

وقال عدي :

ـ بلى ! يوجد .. هذه الصناديق الخشبية يمكن حرقها .. ثمنها ليس أغلى من صحتنا .. سأحرقها .. واشعل النار !

قالها وخطا نحو الصناديق الخشبية المركومة في أقصى زوايا المطبعة ، حاملا قضيبا حديديا لتحطيمها .

ومن وراء طاولة ترتيب الجريدة صرخ به أبو العز مزمجرا :

ـ ارجع الى مكانك !

وتقدم عدي ·

ـ ارجع الى مكانك !

وتقدم عدي ·

وفتح أبو العز فمه الكبير وبلع شاربيه ·

وتقدم عدي ·

وتناول أبو العز قضيبا حديديا ثخينا وسار الى لقائه ·

وصاح العمال خائفين :

ـ يا ساتر !

وركض الاستاذ محمد وهو لا يدري ما يفعل ·· كان يعرف بطش أبو العز ، وعناد عدي ، ويرى القضيبين الحديديين ، والعيون المشتعلة بالغضب ، كما يرى الذعر ، والكارثة المرتسمة وسط العتمة والقذارة والحقد المدمر ، لكنه كان يعلم أن أبو العز ظل صاحب الجريدة ، فاستيقظ في نفسه الثأر القديم الغافي ، وتمنى أن يقع شيء ما ·· شيء ما يعيد الثقة الى نفسه ·

ووصل عدي الى الصناديق الخشبيـــة ، ووقف أبـــو العز قدامها يمنعه أن يمد يده اليها ، وتوقفت الآلة الطابعة ، وماتت معزوفة « تريك ! تراك » الرتيبة المملة ، وانحبست الانفاس •• الثلج وحده ظل يتساقط، وظل أبو الطفي ، تحت النافذة، في اغماءته ، وقهقه الموت من شق كبير في الجدار لا يعرف أحد متى صار •

وترك العمال صناديقهم ، وتوقفوا مدهوشين ، شاعرين أنه آن الاوان لتصفية الحساب •• لم يعد شيء يجدي : لا التدخل، ولا الصياح ، ولا الاستنجاد هاتفيا بصاحب الجريدة أو رجال الشرطة •

نار أو لا نار •

وأبو العز يبلع شواربه •

وعدي يرتعش فكاه •

والقضيبان الحديديان يضطربان ••

وصوت أصم ، مرعب ، غير منطوق ، يصيح :

ــ لا تمد يدك •

ونظرات صامتة تجيب :

ــ سآمدها ..

ورفع أبو العز ساعده .. بدا القضيب في قمة ارتفاعه وهياجه ، وظل عدي ثابتا ، محتفظا بهدوئه .. ومضت ثانية، اثنتان .. ثلاث .. ومد عدي يده اليسرى ، وتناول أول صندوق طاله وقذف به الى العمال ..

ولم يهو القضيب في يد ابو العز ..

وانسحق ، دفعة واحدة ، الرعب والصمت .

وانجرد العمال وراء عدي ، وبات على أبو العز أن يختار .. أن يقرر .

وتلاقت العيون .. تصادم الحقد بالحقد ، وارتجف ساعد وتهاوى ، ونبق الشارب المبلوع .

وقال أبو العز أخيرا ، بصوت حاقد سام :

ــ لن ألوث يدي بدمك يا عدي .

وقال عدي :

ــ هذا ما عليك أن تفهمه من الاول .

وسقط قضيب على الارض .. وسقط آخر ، واشتعلت النار في الموقد ، وتعالى اللهب ألسنة حمراء شيطانية ، وهرع

الاحداث بأرغفتهم لتسخينها ، وتحرك أبو الطفي تحت النافذة، وأطل برأسه ينشد الدفء ، وعادت الحروف الى التكتكة ٠

وعادت كذلك الآلة الطابعة الى معزوفتها الجميلة ، الساخرة هذه المرة !

١٩٤٩

. . .

هذا بابي ومن

كانت ابنته ترقد على سريرها في الجهة الجنوبية من الغرفة، وهي ترنو اليه بعينيها السوداوين الجميلتين وتبتسم قائلة :

ـ متى نعود ؟

ـ قريبا ٠

ـ ليس فور خروجي من المستشفى على كل حال ٠

ـ ليس فور خروجك قطعا ٠٠

ـ لا بد أن نمكث أياما في لندن ٠٠

ـ لا بد يا صغيرتي ٠

ـ سأتفرج على المدينة وأشتري بعض الهدايا لاخوتي ٠

ـ ستتفرجين على المدينة وتشترين الهدايا ٠

ـــ وماذا بشأن الهدية لأخي الصغير ؟ أريدها جميلة جدا ٠

ـــ ستكون جميلة جدا ولا شك ٠٠

ـــ أنا التي سأختارها ٠٠

ـــ أنت التي ستختارين كل الهدايا ٠٠

ـــ ولن تتضايق اذا طوفت كثيرا في الاسواق ؟

ـــ لن أتضايق ٠٠

ـــ وماذا يقول الطبيب بشأني ؟

ـــ أنت بصحة جيدة ٠٠

ـــ هل أخرجوا ذلك الشيء الصغير من ظهري ؟

ـــ أخرجوه !

ـــ كانت العملية ناجحة اذن ؟

ـــ ناجحة تماما ٠

ـــ وسأمشي ثانية مثل كل الناس ؟

ـــ ستمشين مثل كل الناس ٠

ـــ وأركض !؟

ـ ستركضين !

ـ وأقفز كما أشاء ؟ .

ـ ستقفزين كما تشائين !

ـ شكرا لله يا بابا .

ـ شكرا لله يا صغيرتي .

ـ أعطني يدك ..

ـ هاك يدي ..

ـ أحس وأنا ألمسها كأنني ألمس يد ماما واخوتي ..

ـ لقد طلبوا اليّ في الرسالة أن أقبلك ..

ـ ولماذا لم تفعل ؟

ـ نسيت .. ها .. سأقبلك (وقبلها)

ـ من كان يظن أنني سأشفى بهذه السرعة ؟

ـ الله كريم يا حبيبتي ..

ـ كنت خائفا عليّ ؟

ـ قليلا ..

ـ والآن ؟

ــ اطمأننت ..

ــ قبلني ثانية اذن ..

ــ هه ! (وقبلها ثانية)

فعل ذلك بصعوبة أكبر ، مستشعرا حرقة في حنجرته لم يستطع معها الكلام . ابتعد عن السرير متظاهرا بأنه يسرح النظر في أبنية لندن القديمة ، المنبسطة سطوحها ذات المداخن أمامه . كان يجاهد كي يتماسك فلا ينفجر بالبكاء ، أو لا تغدره دمعة فتسقط من عينيه وتشي بحقيقة ما سمع . وكان على شك من قدرته على هذا التماسك ، فهو يتهرب متجنبا النظر في عيني صبيته الصغيرة ، راغبا في الفرار من المستشفى كله ، والسير حيث تقوده قدماه ، أو الجلوس في حانة واغراق حزنه بالشراب .

قال في نفسه وهو يزفر كاتما زفرته :

ــ علي أن أحتمل . لست امرأة على كل حال . عار على الرجل أن يبكي .

وحاول أن يغيب في الاعماق مشاعره الحزينة ، وان يتسلى بالنظر فيما أمامه من مناظر .

السماء رمادية ، توشك أن تمطر ، المداخن مشرعة الدخان ، كسفن متراصة في مرفأ وتنفث الدخان تأهبا للرحيل . وجو

قابض للنفس يهيء المشاعر للاندماج في الحزن، بينما هو يريد الانفكاك منه • يجاهد لكي تتراخى أوتار حنجرته اللعينة التي تهدج صوته وتبعث بتيار حار الى الدماغ وأعصاب العينين •

قال في نفسه : اللعنة عليّ كم أنا ضعيف •

وقال أيضا : يا الله ! لماذا خلقتني ضعيفا رقيقا الى هذا الحد ؟

وقال : ما أقسى أن يتبلغ انسان حكما بالموت !

وتساءل : أيهما أقسى ، أن يتبلغ الانسان حكما بموته أم بموت ولده ؟

نفض ، أخيرا ، كل هذا التساؤل المعذب وقال : لست أدري •• لماذا أعذب نفسي بالدوران على محور أفكاري الحزينة ؟ لقد تبلغت الحكم وكفى •• الطبيب قال لي انها ستموت، وأنا، الآن ، أعرف أنها ستموت ، لكن هي يجب ألا تعرف •

استدار عن الجدار الزجاجي ونظر اليها • كانت تبتسم كلما نظر اليها • انها فرحة ، مطمئنة ، واثقة أن كل شيء على ما يرام • لقد أخرج الطبيب ــ كما قال لها ــ ذلك الشيء الصغير من ظهرها ، وانتهت العملية بنجاح، ولم يبق الا أيام وتشفى •

قال في سره وهو يواجهها : آه لو كان في وسعي أن أفديك يا حبيبتي .

وقال : لماذا لا يقبل عزرائيل الفدية ؟

وقال : لو كنت أرحل أنا وتبقى هي !؟

اقترب منها ، مسند براحتيه شعرها الاسود المرسل على الوسادة . ثم داعب جبينها ، ومن جديد أخذ يدها بين يديه ، وابتسم .. واستشعر راحة لانه ابتسم .. لقد انتصر على حزنه مؤقتا ..

زالت ، قليلا ، آثار الصدمة التي خلفتها مقابلة الطبيب الجراح منذ قليل .

كان قد اجتمع به بناء على موعد سابق . وقال الطبيب وهو يشجعه على التصبر :

ــ لا فائدة من المعالجة يا سيدي .. ابنتك ستموت .

وساد صمت رهيب كما في محكمة تلفظ حكما بالاعدام .

أضاف الطبيب :

ــ السرطان منتشر على طول العمود الفقري ، وستبقى

قدم الفتاة مشلولة ، ثم تشل القدم الاخرى ، ويسري الشلل بعد ذلك في الجسم كله ، حتى يبلغ الدماغ فتموت .

حاول أن يسائل الطبيب أكثر . أن ينتزع منه كلمة تفيد بأن ثمة أملا بانقاذها ولو بنسبة واحد في الالف ، لكن الطبيب ردد ما قاله سابقا بكلمات أقل هذه المرة .

وعندما فقد الامل ، شرع يفرك أصابعه بعضها ببعض وراء ظهره . ولما انصرف الطبيب جعل يذرع غرفة رئيسة الممرضات جيئة وذهوبا ، وهو يود لو يتحدث الى انسان ، لو يشكو ما به عسى أن تخف لوعته ، لكن أحدا لم يكن الى جانبه ، فهو غريب ، وفي بلاد الغربة يتلقى نبأ الموت الذي سيتخطف ابنته من بين يديه . هنا لا أم ولا أخ ولا زوج ولا صديق . هو وابنته ، وحدهما مع الموت ، ووحدهما مع الغربة .

لقد جاء بها الى لندن من بلده العربي البعيد ، على أمل انقاذها ، وها هو الامل يخيب . الفتاة ستموت ، وهو وحده يعرف هذه الحقيقة ، ولنفسه يجب أن يحتفظ بها .

حسنا ! أشعل سيكارة ، ثم أخرى ، ثم ثالثة . وعض على شفته وهو يهم بدخول غرفتها . استجمع كل ما بقي من قواه حتى اغتصب ابتسامة رسمها على وجهه ودخل .

كانت الصبية بانتظاره ، وقد سألت الممرضة عدة مرات عن وصولــه ، وكان وجهها الفتي نضــيرا ، كصباح صيفي ، وابتسامتها الفاتنة تشع بها عيناها السوداوان ، لظنها أنهــا شفيت ، وأنها ستغادر المستشفى الى البيت فالمدرسة ، وهي لذلك تلح قائلة :

ــ علينا أن نسرع باجراء العملية لانني لا أريد أن أضيع مستقبلي ٠

الآن أجريت العملية وضاع المستقبل ، بل ضاعت الحياة نفسها ، ولكن عليه أن يكتم كل ذلك ٠ عليه أن يكذب ٠ أن يقول لها انك ستشفين ، ويجاريها في وهمها ٠

ولما ضاق بالكذب ، قال لهــا انه سيخرج ليدخن سيكارة ويعود ، فهزت برأسها موافقة وهي تتابع ابتسامتها المشرقة ٠ وفي طريقه الى خارج الغرفة خطا خطوا هادئا متزنا ، كيلا يشعرها أنه يهرب من غرفتها ، فلما ابتعد عن الباب ، أوسع الخطى الى غرفة الانتظار ، حيث سيرتمي على أحد المقاعد ، ويترك لعواطفه حرية التعبير عن نفسها ٠

غير أنه ، في غرفة الانتظار ، وجد طفلا يحبو على السجاد ٠ كان طفلا رضيعا ، تنبه لدخوله ، فتوقف وأرسل في الهواء يده

الصغيرة كأنه يدعوه الى حمله ، فلما لم يفعل بكى الطفل ، وازداد بكاؤه حتى احتار الرجل في أمره ، ولما لم تنفع المناغاة التي اصطنعها معه ، حمله على ساعده ، وراح يدلله ويلاطفه حتى كف عن البكاء •

كان الطفل أسمر ، معافى ، في ثياب تشي بأنه من غير أبناء لندن • وكانت مصاصة تتدلى من عنقه ، وضعتها أمه في فمه عندما تركته على السجادة ، وقد سقطت المصاصة على الصدر فراح الطفل يزحف ، كأنما يلاحقها ، ثم فطن الى غياب أمه فبكى ، وكان على الرجل أن يعيد مصاصته اليه ، وأن يحمله ريثما تعود أمه ، وهكذا فعل وهو يعجب للامر ، ويتعزى عن مصابه بتحويل دفعات الألم التي تكوي حلقه الى هتفات حنان صغيرة ، استغرب هو نفسه من أين واتته ، وكيف تلفظ بها برغم ذلك اليباس الذي يستشعره في لهاته •

أخيرا ظهرت امرأة على الباب • كانت حنطية اللون ، ذات شعر أسود ، ملفوف بشال حريري أبيض يتدلى على الكتف ، وقد استدل من هيئتها أنها غريبة مثله ، لكنه لم يستطع أن يحزر من أي بلد هي •

وفوجئت المرأة بالرجل الغريب يحمل طفلها • تسمرت على العتبة قبل أن تخطو داخلة ، وارتبكت قبل أن تتصرف

فتمد يديها لتتناول طفلها الذي عاود البكاء منذ أن رآها •
ولانها تجهل أيما لغة أجنبية فقد تمتمت بشيء ما بين أسنانها ،
وأخذت طفلها وانزوت به على أحد المقاعد في ركن الغرفة •

جلسا صامتين • هو يدخن وهي تحتضن الطفل • كان لكل
منهما ألمه الخاص ، وكان ألم الرجل أكبر ، لكنه استطاع أن
يكبته ، بينما المرأة تنطوي على نوع من رجاء يجعل تصرفها
هادئا •• وقد تمنى أن تتكلم ، أن تتحدث الى طفلها ، ليعلم
من أي بلد هي ، غير أنها لم تنبس بكلمة لانها مثله كانت تفكر :
من أي بلد هذا الرجل الذي حمل الطفل ؟

جاءت ممرضة وندهت الرجل • كان هو أيضا يجهل اللغة
الانكليزية ، وفهم أن الطبيب يريده فسار معها ، وفي غرفة
رئيسة الممرضات كان طبيب لم يره قبل الآن ينتظره • كان
يتكلم الفرنسية ، وقد اعتذر لازعاجه ، وأبلغه أنه مضطر الى
الكلام معه حول مريض عربي وصل أمس الى المستشفى •
تذكر الرجل المرأة والطفل فورا ، وفهم أن عليه أن يكون
ترجمانا ، وتمنى في سره أن يكون النبأ الذي سيتلقاه عن المريض
أفضل من النبأ الذي تلقاه عن ابنته ، لكن الطبيب رجاه أن
يتفهم الموقف ، ويتصرف مع زوجة المريض بما يراه متلائما
مع عادات البلاد العربية •

ـ فهمت ، قال الرجل ، عندنا لا يقول الاطباء كل الحقيقة لأهل المريض ٠

ـ أنت أدرى ، قال الطبيب ، هنا نصارح ذوي المريض ٠ نضعهم في الصورة الصحيحة ٠

ـ والمريض ؟

ـ لا داعي لتعذيبه ٠٠ أحيانا ، في الحالات الخطيرة ، نتكتم عليه ٠

ـ وماذا بشأن المريض زوج المرأة ؟

ـ لا فائدة من معالجته ٠٠ سرطان الدم ٠٠

ـ الافضل أن يعود الى بلده اذن ؟

ـ فات الاوان ٠٠ كان الافضل ألا يأتي ٠

ـ سيموت اذن ؟

ـ خلال يومين على الاكثر !

ـ وماذا عليّ أن أقول لزوجته ؟

ـ قل لها ان حالته خطيرة فقط ٠٠

ـ أنده لها الى هنا ؟

ـ كما تريد ••

ثم أضاف :

ـ لا تنده لها •• النتيجة النهائية بعد الظهر •• ولانها لا تعرف أية لغة أجنبية ، فعليها أن تحضر من يترجم لها ••

ـ سأكون هنا للمساعدة ••

ـ هذا جميل منك •• في الخامسة بعد الظهر اذن •

ـ اتفقنا •

عاد أدراجه على طول الممر وهو مطرق يعض على جرحه عضا • كانت ابنته ترقد على سريرها في الغرفة التي في آخر الممر • ربما كانت تبتسم لشيء ما الآن • عيناها السوداوان الجميلتان تلتمعان بفرحة الشفاء القريب ، وهي تفكر بأمها واخوتها وأخيها الصغير • تفكر بالهدايا وبالركض والقفز ، وكذلك بالعودة الى المدرسة وبالمستقبل الذي لا تريده أن يضيع •

وقال في نفسه وهو يمر بغرفتها منخطفاً كيلا تراه : « أي مستقبل بقي لك يا صغيرتي ؟ » أضاف : « وأي مستقبل بقي لهذا الرجل المريض الذي ربما كان يحدث زوجه قبل قليل

عن الشفاء والعودة الى العمل ؟ » ان أجمل مافي الانسان هو قدرته على الحلم • التعلق بالحياة والثقة فيها وهي تغرب كالشمس في يوم خريفي • وها هما انسانان يغربان • ينطفئان كالشمعة ليحل من حولهما ظلام طويل • وعليه هو الذي يعرف، أنهما في رحلة النهاية أن يبتسم لهما ، ويطمئنهما ، ويقول لهما انكما ستشفيان ، وستعودان الى بلادنا البعيدة ، الجميلة، حيث الشمس والخضرة والسماء الصافية الزرقاء •

توقف قبل خطوات من غرفة الانتظار • عليه الآن أن يغتصب ابتسامة أخرى فيرسمها على وجهه قبل الدخول • عليه أن يكذب مرة أخرى ، ويقول كلاما آخر غير الذي سمعه •

رغب عن مرأى الام وطفلها القابعين في زاوية غرفة الانتظار • عاوده ، في هذه اللحظات التي يحس فيها بالاختناق، النزوع الى الهروب خارج المستشفى ، الى السير في شوارع لندن على غير هدى ، تحت السماء المضبَّة ، ورذاذ المطر ، كي يتنفس في العراء ملء رئتيه • وعندما يتمالك نفسه من جديد ، يعود ليكذب من جديد ، ليبعث أمل الشفاء في انسانين يسيران الى الموت • لكنه كان مضطرا الى البقاء ، لانه لا يستطيع أن يترك ابنته ، ولا المرأة وطفلها وزوجها المريض •

مسح ، على غير وعي منه ، وجهه بمنديله • استشعر غبارا

على الوجه • مسّد شعره • أصلح ربطة عنقه • ضغط أعصابه بقوة • وعندما خيل اليه أنه عاد الى وضعه الطبيعي ، دخل غرفة الانتظار •

كان الطفل قد نام • وجهه الملائكي ينبيء عن سعادة طفل في حضن أمه • انه لا يعرف شيئا ، وغدا ، عندما يكبر ، لن يذكر شيئا أيضا • ستحدثه أمه عن أبيه ، وسيرى صورته في درج أو على الجدار ، لكنه لن يتوصل الى تذكر شيء ، فالحياة تمسح الاحزان والافراح على السواء ، تجعلها من الذكريات الراقدة في اللاشعور بالنسبة للكبار ، فكيف به وهو طفل رضيع ؟

وقال في نفسه وهو ينظر اليه : « أيها الطفل ، يا ملاكا له وحده الجنة ، لان له وحده براءة هذا الوجود ، نم •• ابق نائما • لا تفكر بأبيك الذي يحتضر • انه لا يطلب منك ذلك ولا يعتب • هو يفكر بك وكفى ، وربما ، الآن ، في هذه اللحظة ، يتمنى أن يراك ، وأن يقبّلك ويناغيك » •

والمرأة التي ينام الطفل في حضنها كانت قد أغفت هي الاخرى • هدها التعب وسهر الليالي ، وهدتها هذه الغربة التي لا تعرف كيف تتصرف فيها ، والى من تشكو همها • والرجل يقف داخل العتبة ، ينقل ناظريه بين الطفل وأمه

النائمين ، ويعد الكلمات التي سيقولها لها عندما تستيقظ ، والطريقة التي سيقولها بهــا ، ويشفق على هذين المخلوقين البائسين مثله ، أن يكون مصيرهما كمصيره ٠

غير أن الام فتحت عينيها فجأة ٠ فتحتهما وحملقت في الرجل وجلة ، معتذرة عن نومها في هذا المكان ٠ وبغير ارادة منها مدت يدها فشدت ذيل فستانها، وسوت الشال على رأسها. واحتضنت طفلها ، وأطرقت مفكرة مهمومة ٠

حياها الرجل بالعربية ٠ فوجئت به ، واندلحت مع المفاجأة أمائر للراحة في قسماتها ، كمن لقي فرجا بعد ضيق شديد ٠

قال الرجل :

ــ اعذريني ٠٠ ما كنت أعرف أنك عربية ٠

قالت المرأة :

ــ قلبي حدثني أنــك عربي ، لكنني خجلت ٠٠ ما كنت أتصور أن ألتقي هنا بمن أستطيع التكلم معه (وبعد صمت) أنت طبيب ؟

ــ كلا ٠٠

ــ لك مريض في المستشفى ؟

ـ ابنتي ..

ـ عافاها الله ...

قال الرجل في سره : « هيهات » وسأل بدوره :

ـ وأنت ؟

ـ زوجي في المستشفى .

ـ وكيف حاله الآن ؟

ـ تحت رحمة الله !

ـ حدثني الطبيب عنه .

ـ وماذا قال ؟

ـ سيحضر كبير الاطباء بعد الظهر ، وهو الذي سيحدثك عن مرضه .. وسأكون هنا للترجمة .

ـ أشكرك جدا ، ولكن أما عرفت شيئا على الاقل ؟

فكر أن يقول لها ان زوجك في حالة الخطر ، ثم بلع ريقه وقال :

ـ لم تنته الفحوص .. أرجو أن تسمعي أخبارا مطمئنة .

ـ ان شاء الله .

ـ من أي بلد أنت ؟

ـ من فلسطين ، وزوجي يعمل الآن في الكويت ٠٠ كان يتعالج في مصر ، وأشار الاطباء بأن حالته خطرة ، فقررنا المجيء الى لندن ٠٠ قالوا لنا ان الطب متقدم هنا ، ويمكن انقاذه اذا جئنا ، وسيلحق بنا أخوه غدا ٠٠ هذه هي القصة ٠

تشبه قصته الى حد ما ٠٠ هو أيضا نصحه الاطباء بمعالجة ابنته في لندن ، ولكن لندن خيبت أمله ٠

ـ أنا من سورية ٠٠ وابنتي مصابة بورم في النخاع الشوكي ٠٠ وأفضل مكان لجراحة النخاع الشوكي هو لندن ٠٠ هكذا قال الاطباء أيضا ٠

ـ لماذا يبعثون بنا الى هنا ٠٠ الى بلاد الغربة هذه ؟

ـ لانه لا توجد مشافي ذات تجهيزات مماثلة وأخصائيين كما هنا ٠

سكتت المرأة ٠٠ وفكر الرجل : « كم يكلف مستشفى من هذا النوع ؟ وهل تعجز دولة بترولية واحدة ، عن انشاء عشرة مشاف مماثلة ؟ ثم قال في سره : ولماذا لا يستقدمون أخصائيين للعمل في مشافي مجهزة كهذه ؟ مونت كارلو ! يا مونت كارلو ! على موائدك الخضر ، كل ليلة ، تهدر أموال تبني مدينة

مشاف ! ويا باريس ، عطورك ، وغانياتك • واللحى ، وحمامات العطور ، والملايين التي تنفق ! ونحن هنا •• طفل يزحف على الارض ، ورجل يئن على السرير ، وصبية تنحدر الى اللجة ، وأب يلوب ويتألم ، وزوجة تضطرب من خشية وحرقة ، ومئات مثلهم ، في هذا البلد أو ذاك ، يموتون في بلاد الغربة » •

جاءت الممرضة تطلب الزوجة الى غرفة زوجها • أشارت الى الام أن تترك الطفل في غرفة الانتظار • وأفاق الطفل لدى نهوض الام ، وبكى فتقدم الرجل ، كأنما الى واجب متفق عليه ، وتناول الطفل ، وقال للام :

ـ اذهبي ••

ذهبت وهي تتعثر في خطوها حياء من الرجل • لكن هذا ، الآن ، لم يعد غريبا عنها • نسيب الغربة صار ، وشريك الألم ، وحامل الحقيقة وكاتمها • عليه أن يتحمل مصابه ويساعد في تحمل مصاب الزوجة ، وأن يتنقل بكذبته عن الشفاء بين سريرين متباعدين ، في غرفتين متجاورتين ، وأن يرى الموت جلادا فوق رأسين : رأس الصبية ورأس الرجل •

قالت المرأة لزوجها :

ــ في غرفة الانتظار رجل من ديارنا •• عربي مثلنا •

وقال الرجل لزوجه :

ــ وماذا يفعل هنا ؟

ــ ابنته مريضة ، في الغرفة المجاورة •

ــ أريد أن أراه •• لماذا لم يأت معك ؟

سكتت المرأة • كبر عليها أن تقول انه يحمل الطفل • كان ذلك تجاوزا للحد ، ولكن الحدود في الغربة تمحي • والمريض قد لا يفهم هذا • لماذا يتطوع الرجل الغريب ليحمل طفلا غريبا ؟ والزوجة ارتبكت ، والممرضة الواقفة قرب السرير لا تفقه حرفا مما يدور بين الزوجين • هي شاهدة فقط ، وشاهدة حيادية ، ترى الموت يقف على رأس الرجل ، ولكنها ، في كل يوم ، ترى هذا الجلاد الذي ألفته ، أو هي ، مثل غيرها ، لا تستطيع حياله شيئا •

وجاءت الزوجة تنده الرجل « في الغرفة رقم ٢ زوجي • انه يريدك • أرجوك أن تكلمه قليلا ، أن تجبر خاطره بالبقاء الى جانبه حتى يطمئن » •

ذهب الرجل الى المريض • مر على ابنتــه التي ما تزال

تبتسم • انها تفكر بالهدايا ولا شك • وقال لها : « كيف أنت يا صغيرتي ؟ » وقال لها : « انه سيأتيها غدا بالرسائل التي تصل من الاهل » وقال لها : « أنا مشغول قليلا •• وسأعود » وعندما غادرها كانت تبتسم أيضا • لقد أزالوا ذلك الشيء الصغير من ظهرها ، وغدا أو بعده تنهض من السرير !

وفي الغرفة الاخرى كان المريض • وكان الموت قد تخطى الحاجز الحديدي للسرير وصار على الوسادة • وهتف المريض منذ دخل عليه :

ــ مرحبا ، يا رائحة الوطن !

ــ كيف أنت الآن ، ألا تشعر بتحسن ؟

ــ لا أدري •• ماذا يقول الطبيب ؟

ــ لم تظهر نتائج الفحوص بعد ••

ــ وما رأيه ! لقد فحصني •• قالوا لي انهم يعرفون هنا •• ألم يعرف علّتي ؟

ــ هنا لا يشخصون المرض ويبدأون بالمعالجة الا بعد ظهور نتائج الفحوص •

ــ ومتى تظهر هذه النتائج ؟

ـ غدا !

ـ غـدا ؟

قالها بأسى ، كأنما هذا الغد بعيد ، في الابد · لوى رقبته بعد ذلك على الوسادة ·

راحت كلمة « غدا » تدوي في فضاء الغرفة · تتسمَّر في العينين الشاردتين · تنبت ابرا على الفراش ، وشوكا على الشفتين · الوهن · رغبة في الكلام ولا طاقة · « لا أريد أن أمـوت ·· أنقذوني ·· اشتروني » وصرخـات تشتعـل ، وتنطفيء ، وتمتمات ، وعرق على الجبين ، وأنين ·· ثم سأل بلهفة عن الصغير ··

قال الرجل :

ـ الصغير نائم ··

ـ ومتى يفيق ؟· كلما سألت عنه قالوا انه نائم ·· أريد أن أراه ·· دعوني أره ··

ـ ستراه ··

ـ متى ؟

ـ عندما يفيق ·

ــ أحضروه لي نائما ٠

ــ هذا لا يجوز ٠٠ اصبر وستراه ٠٠ اذا لم يكن اليوم فغـدا ٠

وترقرقت دمعتان في المحجرين ٠ « كل شيء غـدا ٠ لماذا ليس اليوم ؟ » وخبط برجليـه فانكشف الغطاء ، وتقدمت الممرضة لتعيد الغطاء وتمنع حركة الساعد التي كادت تملص أنبوب التغذية الاصطناعية ٠ فصاح المريض :

ــ أريد الطبيب ٠٠ نادوا الطبيب ٠٠

وأومأ الرجل الى الممرضة ، فهزت هذه برأسها نفيا: لا حاجة للطبيب ! لا فائدة !

فقال الرجل :

ــ انتظر قليلا ، سيأتي الطبيب ٠٠

ــ وسيعطيني دواء يوقف الألم ؟

ــ لا بد أن يعطيك دواء يوقف الألم ٠٠

ــ ولن أموت !

بلع الرجل ريقه بصعوبة ٠٠

ـ ستشفى •• تحمل قليلا و ستشفى !

ـ قالوا لي انني سأشفى هنا ••

ـ صدق ذلك . ستشفى ••

ـ وسنعود الى الوطن ؟

ـ سنعود ••

ـ وأحمل ابني على زندي وأسير ••؟

ـ ستحمل ابنك وتسير ••

ـ وسأرى بيتي وأولادي وأهلي ••؟

ـ ستراهم جميعا !

ـ أعطني يدك ••

أعطاه يده • أمسك بها بقوة سرعان ما تلاشت • مع ذلك ظل محتفظا بها • ابنته أيضا طلبت يده وظلت ممسكة بها • كل الذين هنا ، المودعون في رحلة اللاعودة . يمسكون بأيدي ذويهم ويحتفظون بها • يتعلقون بهم ، يحتمون ، ويتشبثون •• تراخت يد المريض • الغيبوبة ! سيفيق بعد قليل ، يشرع بالصياح ثم يغيب ، ويعاود الصياح فالغيبوبة • انه يحتضر •

الطبيب قال ذلك ، وهو يراه ، والممرضة تنتظر ، وفي غرفة الانتظار الزوجة تنتظر ، وهو ، الرجل الذي يشهد ولا يستطيع أن يتكلم ، يمضغ ألمه مضغا ويسكت ·

عاد الى غرفة الانتظار · قال للزوجة ان زوجها نام · وقال لها هاتي الصغير واذهبي الى غرفة ابنتي التي هناك · لاتحدثيها بشيء · قولي لها فقط ان زوجك مريض ، وانه سيشفى · ستكون ابنتي مسرورة برؤيتك · هي أيضا اشتاقت أن تتكلم العربية مع أحد ، وستتسليان قليلا ·

أعطته الطفل وذهبت · صار من واجبها أن تزور ابنته كما رأى من واجبه أن يحمل ابنها · ان علاقة ما ، حميمية ، قامت بينهم الآن · علاقة وطن وألم ، وهو ، في قلب لندن الكبيرة ، وجد ، الآن ، زاوية آهلة · كان كل ما حوله فراغ ، والآن وجد زاوية آهلة ، وبرودة الاشياء ، في الوحدة ، صارت الى دفء ، وهذا الطفل بين يديه ، يناغي ويرفس برجليه ويلوح بيديه ، وهو به سعيد ، وقادر مع الألم أن يتعزى · قد يكون ثمة أمل بعد ، ولن ينقطع ما دام كبير الاطباء لم يقل كلمته الاخيرة ·

في اليوم التالي جاء شقيق المريض · ترك عمله في الكويت ولحق بأخيه · واستقبلته زوجة الاخ باكية · كان كبير الاطباء

قد جاء و قال كلاما ترجم الرجل بعضه و امتنع عن ترجمةالبعض الآخر • لقد أصدر كبير الاطباء بواقع الحرفة و لياقتها ، حكمه المنتظر بالموت ، ثم تعجل بالرحيل ، بكثير من اللطف ، و ببعض التعليمات الى رئيسة الممرضات •

جلس الرجل والاخ والزوجة في غرفة الانتظار • ثلاثة غرباء في بلد غريب • وفي غرفتين متجاورتين ، مريض يحتضر وفتاة صبية تبرق عيناها السوداوان بفرحة الشفاء القريب ، لانها لا تعرف أنها ستموت • وكل الفارق بينها و بين المريض الذي يحتضر زمن قد يطول وقد يقصر ، لكن النتيجة مقررة : الموت أيضا !

قال شقيق المريض :

ـ لماذا كتب علينا أن نتشرد من فلسطين الى لبنان ، ومن لبنان الى الكويت ، ومنها الى مصر ، ومن مصر الى لندن ؟ أما لتشردنا من نهاية ؟

وقالت زوجة المريض :

ـ غرباء غرباء غرباء •• لماذا نحن دون سائر الناس غرباء؟ ولماذا نحيا في الغربة ، وفي الغربة نواجه المرض والموت ؟

وبكى الطفل الرضيع كأنما يذكر بوجوده ، ويشارك بالتذكير بغربته هو الآخر ٠

قال الرجل :

ـ لنتحمل قليلا ٠٠ الغربة ليست أبدية ٠٠ سينتهي كل شيء ونعود ٠

قال شقيق المريض :

ـ نعود ؟ هه ٠٠ منذ عشرين عاما ٠٠

قال الرجل :

ـ أعرف أعرف ٠٠ منذ عشرين عاما ٠٠٠

وقالت المرأة :

ـ كثيرون لن يعودوا ٠٠ ماتوا في الغربة ٠

وقال الرجل في سره : « زوجك من هؤلاء » ٠

ثم قال لها :

ـ استراحوا ٠٠

قال شقيق المريض :

ـ ونحن متى سنستريح !؟ لقد مللنا !

ـ نحن أيضا سنستريح ‥ من يصبر قليلا ينل كثيرا ٠

انفجر شقيق المريض :

ـ اللعنة على الصبر ‥

وهز الرجل رأسه موافقا ، بينما عادت الزوجة تسأل :

ـ قلت ان الطبيب لم يعط رأيا قاطعا ؟

ـ نعـــم ‥

وبكى الطفل من جديد ٠ كان والده يحتضر ٠

وقالت الزوجة :

ـ لو أعطاه دواء مسكنا على الاقل ؟

قال الرجل :

ـ الطبيب أعطى التعليمات اللازمة لرئيسة الممرضات ٠

وقال الشقيق موجها الكلام الى الرجل :

ـ لنذهب اليها ‥ أرجوك ‥ عساها تفيدنا في شيء ‥

وافق الرجل ، فذهبا ‥

رئيسة الممرضات لم تقل شيئا ٠ كان المريض يحتضر ‥

وقال الشقيق :

ـ لندخل الى غرفته ونرى الى حالته ••

وترجم الرجل ما قاله الشقيق ، فمانعت الممرضة • كان المريض يحتضر ••

عادا الى غرفة الانتظار ، ولم ينبسا بكلمة الآن • كان كل منهم يجتر همومه على طريقته • والطفل نام في حضن أمه • لم يكن قادرا على أن يفهم أن والده يموت ، وهو وحده استراح من فهم هـذه الحقيقة وتجاوزهـا • سيكبر يوما ، ويفهم ، وعندئذ ربما يكون زمن الغربة والتشرد قد انتهى •

دخان • أشعل الشقيق سيكارة • أشعل الرجل سيكارة • أعاد كل منهما اشعال سيكار جديدة ، وأعادا ، طوال ساعة ، اشعال السيكارات واطفاءها ، وفجأة جاءت الممرضة تنده شقيق المريض •• لقد توفي الذي كان يحتضر ••

هرع الرجلان الى الغرفة • كانت ستائر السرير قد أسدلت من حول الميت ، والسكينة في الغرفـة تشي بالحزن والسفر البعيد ، وحين شق الاخ الستارة ورأى أخاه المريض قد أسلم الروح ، هجم عليه وراح يعانقه صارخا : « يا خي ! كلمني يا خي ، كيف مت بهذه السرعة يا خي !؟ » •

الاخ لم يجب ·· كان قد سافر الى بعيد ··

وجاءت رئيسة الممرضات فأخرجت الرجلين ، وطلبت منهما أن يخبرا الزوجة لتأتي فتلقي نظرة الوداع على زوجها ، قبل أن ينقل الى غرفة الموتى · نظر أحدهما الى الآخر وهما يسيران الى الزوجة في غرفة الانتظار : من يخبرها منهما ؟ توسلت عينا الاخ · توسلت عينا الرجل · دمعت العيون الاربع وتعانقا ·· تعانقا ليس لان مريضا مات ، وليس لان فلسطينيا مات ، ولكن لانه في الغربة قضى ، وفي غرفة الانتظار تنتظر زوجة وطفل رضيع ··

ما أقسى بعض المواقف ؟ سنة ؟ ربما أكثر ، مستعد كل منا أن يدفع من عمره ليتجنب موقفا مماثلا · لكن تبادل المواقف والسنوات لا يتم بسهولة · علينا أن ندفع ألمآ ، وأن نتعلم ، كل يوم ، كيف نتألم أكثر ، ونتحمل أكثر ·

دخلا غرفة الانتظار ، وشهق الاخ باكيا :

ـ آخ ··

وقال الرجل للزوجة :

ـ العوض بسلامتك ··

وصاحت الزوجة :

ـ مات !؟

هزا برأسيهما ، شقيقه والرجل ، ولطمت الزوجة خديها وانهارت . وركضت رئيسة الممرضات للاسعاف ‥ وغادر الرجل الغرفة وهو يحمل الطفل بين ذراعيه ٠

بعد ساعة خرجت الزوجة من غرفة زوجها الميت ٠ كان بيدها كيس من نايلون ، فيه كل ما تبقى منه : بنطلون ، وقميص . وفردتا حذاء ‥ وعلى الاثر خرجت عربة نقالة من الغرفة وعليها المتوفى مسجّى ومغطى بشرشف أبيض ، وبعد أن أدخل المصعد ونقل الى غرفة الموتى ‥ تعانق الرجلان ، الشقيق ووالد الصبية المريضة ، وافترق الجميع الى غير لقاء ‥

وعندما ، في اليوم التالي ، سألت الصبية والدها :

ـ كيف صحة العم المريض في الغرفة الثانية ؟

أجابها دون أن ينظر في عينيها :

ـ جيدة يابنيتي ‥ ولكنهم نقلوه من هنا ‥ لقد اكتشفوا أن مرضه في المعدة ، ونقلوه الى مستشفى آخر ، لاجراء جراحة لمعدته ‥

وسكتت الصبية ٠

صدقت ؟

من يدري ٠٠

ربما حزرت ، وربما شكت ، لكنها ، هي نفسها ، وبنفسها ، لم تشك أبدا ٠ كانت واثقة أنها ستشفى ٠٠

وأكد لها والدها ، وهو يكذب ، ربما ، للمرة العاشرة ، أنها ستشفى ٠٠

وغادر غرفتها ليطوف على غير هدى ، غريبا في مدينة غريبة ٠

١٩٧٥



جمرة السنديان

الجمرة المقطوعة من جذع سنديانة لا تنطفىء حتى تفنى هي ذاتها • قد تخبو ، وترى اليها ، في نظرة عابرة ، فتحسب أنها انتهت ، ولكن جرب أن تفج عنها الرماد ، أن تنفخ فيها نفخة من اعصار ، وسترى عندئذ الى توهجها ، وقدرتها على الاشتعال •

ومثل جمرة السنديان يكون الرجال الذين قدّوا من السنديان • قد يشيخون ، يهرمون ، تشيب شعورهم ، لكن رجولتهم تظل عارمة ، مختبئة ، تحت رماد أعوامهم ، فاذا هبت عليها ريح التحدي ، توهجت وأطلت من عيونهم نارا تلفح وتشعل ما حولها •

أبو محمد الشاغوري مثلا •• انه ليس رجلا فردا في حي الشاغور ، أمثاله كثيرون ، لكن له هو ، من دونهم ، صفتين مميزتين : الشيخوخة الوقور ، والصمت المهيب •

ها هو قد عاد الآن الى البيت ، معلقا في كتفه ، بزهو غير قليل ، بندقيته التي تسلمها من قيادة المقاومة الشعبية ·

ودع الاولاد — هكذا كان يسمي رجال الحي — عند رأس الشارع ، وأوصاهم بأسلحتهم ، وبأن يأتوا الى السهرة لسماع الاخبار ، ودخل البيت فألفى زوجته بانتظاره ، والعشاء جاهزا ، والمربع الكبير نظيفا ، والكراسي الصغيرة مرشوقة بانتظام على جانبيه ، وفي الصدر مجلسه ، والطراريح التي يتخذها هو والزوار تكآت لهم ، في أماكنها ، والغوطة قبالة البيت ، غابة من خضرة ، والقمر يتسلق قبة السماء رقيقا متمهلا ، مشعا بالنور الابيض الوهاج ، شأنه في تشرين من كل عام ·

اغتسل وتوضأ وصلى ، وتعشى وقام الى المربع ليتخذ مجلسه ، وأدار مفتاح الراديو ليسمع نشرة أخبار الشام ، ثم جلس ووضع بندقيته في حضنه ، ونادى أم محمد لتأتيه بخرقة نظيفة ·

هو لا يمسك البندقية كما يمسكها سائر الناس · له قبضة من حديد وحرير ، فاذا أراد التصويب أمسك البندقية بقبضة من حديد ، واذا عاد الى البيت انحلت قبضة الحديد وتبدلت بقبضة الحرير ، قبضة اللحم والدم ، ذات الشعور المتصل

بالقلب مباشرة ، والاحساس المرهف ، كالذي يسري في كف حبيب يمسك بيد حبيبته •

وحين انتهى من تنظيف بندقيته ومسحها ، نظر اليهـا عن قرب ، ونظر اليها عن بعد ، وقلّبها في حضنه . وربت على خشبتها بضع مرات ، ومر عليهـا بكفه مرورا حنونا ، كأنه يداعب قطـة أليفة أو كتابا عزيزا ، ثم نهض فعلقهـا على الجدار • وبعد أن تثبت من أنها استقرت في مكانها ، تراجع عنها خطوة أو خطوتين ، واذ وجد بها ميلا عاد فأصلح وضعها ، ثم عاد وأصلحه ثانية ، وتراجع عنها من جديد ، وسحب نظراته عنها بالتدريج ، وعاد الى مجلسه طيب النفس •

وواحدا بعد آخر جاء رجال الحي ، وجلسوا حوله يصغون الى التعليق من الاذاعة وآخر الاخبار ، وكلما هموا بالحديث أشار اليهم بيده أن اسمعوا •

كانوا يسمعون معه ويتحمسون لحماسته ، ويعجبون لان شيخا مثله ، تصرم عمره ، وشاب شعره ، قادر على أن يجاري الشباب ، ويتقدمهم في الحفر والمقاومة ، وانه يبدو ، وقد تجاوز السبعين ، وكأنه في الثلاثين ، يحمل البارودة ، ويقسم ان الاعداء « لن يدخلوا الشام ولن تطأها أقدامهم » •

هذا العجوز ، يقول فتيان وهم ينظرون اليه عائـدا من التدريب ، من أين له هذا النشاط ، وهذا التوقد والحماسة هذه الايام ؟ ويجيب آخرون : أبو محمد لا يشيخ ٠٠ ما نزلت بالبلد نائبة ولا بالحي حادثة الا وأثبت وجوده ٠٠ ثم ينسحب وينساه النـاس ، حتى يقع حادث آخر ، حادث يشغل بـال الرجال ٠

وكان أبو محمد يجتاز الحي كل يوم تقريبا ، ذاهبا أو آيبا من السوق ، لابساً غنبازه المفتوح على الصدر ، فوق « الدامر » المعرق ، وبيده عصاه ، وطربوشه على رأسه لا يرفعه الا وهو داخل البيت ٠

قلما كان يزور جيرانه ، أو يحشر نفسه في شؤونهم الخاصة، ولهذا نظروا اليه كرجل مهيب ، لا يحب الخفـة والولدنة ، ولا مجالسة الشباب ٠

على أن أحدهم ، وهو معلم مدرسة ، روى عنه خبرا مثيرا فقال : عدت ليلة أمس الى بيتي متأخرا ، وما ان استلقيت على فراشي، مفكرا في غارات الطائرات على بورسعيد، حتى سمعت الباب يطرق ، وصوتا أجش ينادي :

ــ يا أستاذ !

ركضت الى الباب وقد حسبت أن الضرب اشتغل في سورية أيضا ، فوجدت أبا محمد يقف تحت المطر ملتفّاً بالعبايــة ، سائلا عن آخر الاخبار ٠

قلت له : لا جديد ٠

قال : وبورسعيد ؟

قلت : ما زالت تُضرب بالقنابل ولكنها صامدة ٠

فأطرق برأسه وأقسم :

ـ وحق محمد لن أستطيع النوم حتى يأتيني منهــا خبر يطمئن البال ٠٠

وذكر هذا المعلم أنه رأى الشاغوري يدور في المربع، وينفخ كالثور الهائج ، مرددا بصوت مسموع : « يا باطل ! يا باطل يا مصر يضربك الغدار » ، ولم يهدأ حتى توقف اطلاق النــار وانتهى القتال بفشل العدوان » ٠

ومنذ أيام عاودت أبا محمد حماسته ، وعاد اليه القلق الذي انتابه خلال العدوان على مصر ٠٠

طاف على الحي بيتا بيتا ، فلما اجتمع عنده الرجال قال

لهم : « النار وصلت الينا يا أولاد ، سمعت أن هناك حشودا على الحدود الشمالية » •

وذهب معهم في اليوم التالي ، فسجلوا أسماءهم في المقاومة الشعبية ، وتسلموا السلاح ، وشرعوا بحفر الخنادق، وأصبحت السهرات تعقد عنده كل ليلـة ، فيستمع الرجال الى الاخبار والتعليقات ، ويتحدثون بما عندهم من شؤون النهار •

وقد بدأ حديثهم مملا هذه الليلة ، لاجديد فيه • وكان من عادته ، اذا ما تحدثوا بأخبار الناس أن يصغي فقط • الا أن الحديث انعطف الليلة فجأة الى المقاومة والتحصين ••• قال أحدهم :

ـ العمارة سبقت الشاغور •

فتدخل أبو محمد ونطق بهذه العبارة الحاسمة :

ـ العمارة لا يمكن أن تسبق الشاغور •

وأضاف بعد أن فرك ذقنه بأصابعه الثلاثة :

ـ صحيح أبو عبده في العمارة •• لكن في الشاغور أيضا ••

وسكت ••

قال نديم الفقش :

ـ في الشاغور أبو محمد ·

فانتهره :

ـ ضب لسانك يا فقش ، في الشاغور رجال و بس ، لافاضل ولا مفضول ·

واعتذر الفقش عما قاله ، لكن أبا محمد أصر على أن حي الشاغور يعني كل فرد فيه ·

قـال :

ـ العمارة على رأسي ، لكن الشاغور ···

وقال الحاضرون :

ـ أبو محمد على حق ··

فقال أبو محمد :

ـ يا أولاد ! الحسن أخو الحسين ·· العمارة ، والميدان ، والشاغور ، كله واحد ، لكننا في الشاغور لا نقبل التحدي أبا عن جد · ففي أيام شبابنا ، كانت عادة المصارعة منتشرة بين الناس ، مثل لعبة الطابة هذه الايام · وكانت الاحياء والمدن والقرى تتصارع ·· ينزل رجـل لرجل في الساحة العامة ، ويدق الطبل ، ويتجمع الرجال ، ويتعرى المصارع ، الا من

« التبَّان » ، يحزمه حول خصره ، وينزل الى الساحة فيقلب « تقَّالة » أو « تقَّالتين » ، ويدور حول خصمه ، وينظر كل منهما الى الآخر ، ويزنه ، ويتفحصه ليعرف أي نوع من الرجال هو ، وأين نقطة الضعف فيه ، والطبل يضرب بقوة ، مثل المطرقة في يد حداد ، والمتفرجون يصيحون مشجعين : « عليه يامحمد ·· عليه يا مصطفى ·· عليه يا صياح ·· اعطه كتفك ·· خذه على جنبك واضربه في الارض » · ويهتاج الجميع : المتصارعون والمتفرجون على السواء ، ويقول الشيوخ : « اتركوهم لنرى » ولكن هات من يسمع ، هات من يقدر أن يضبط نفسه !·· أخيرا يتماسك المتصارعان ، ويشتد ضرب الطبل ، وتتوقف القلوب في الصدور ، وترتفع من جماعة الطرفين الهمهمات ، ويظل الخصمان في كر وفر حتى يغلب أحدهما الآخر ، وعندئذ تنطلق صيحات الظفر في طرف ، وتظهر علامات الانكسار والألم في طرف آخر ·

« وذات يوم ، وكنت في أول شبابي ، دق الطبل دقا شديدا ، بعد الظهر · كان نهار جمعة ، وخرج الرجال والشباب الى الساحة وقالوا : المصارع الشهير ابن مصطو ، يتحدى رجال الحي بلا استثناء ·

« نزل اليه رجل فكشفه · ونزل اليه ثان فكشفه أيضا ·

ونزل اليه ثالث ورابع وخامس فكشفهم جميعا ، وكسر زند واحد منهم ، وفرغت الساحة من المصارعين ، وصاح جماعة مصطو يتحدون الشاغور عن بكرة أبيه :

« يا أولاد ! في هذه اللحظة قام قاسم بن زكي المهروس من أرضه وقال :

ـ ساعدوني على خلع ثيابي .

وصحنا به :

ـ لا تفعلها يا قاسم أنت مريض .

فرد قاسم وهو يرتجف :

ـ في عمري ما طوى ظهري ابن امرأة ، ولا قهر الحي بوجودي ، ولن يطويه حتى ولا ابن مصطو ..

نصحناه من جديد :

ـ يا قاسم اتركه .. اهتم بنفسك واترك الحي ..

فأصر على عناده :

ـ نفسي بنفوسكم . اذا انكسر الشاغور انكسرت أنا . حاشا الشاغور ، حاشاكم يا رجال .. يا فويرس « التبّان » ، وأنت يا محمد فك الحزام ..

توقف أبو محمد عن الكلام ، وقال بلهجة مؤثرة :

ـ يا جماعة ! وحياة شرفكم وشرف كل الرجـال ، بيدي -- ورفع يده في الهواء — بيدي هاتين حزمت له الزناد وقلت :

ـ رح يا سبع الفلا ، الله محييك ومحيي كل الرجال ..

« راح قاسم الى الساحة .. كان يرتجف من المرض . فقد أحضروه من البيت و « البردية » على أكتافه ، لكنه ما سمع الطبل حتى شفي وصار مثل النار ، واندفع مثل السبع الكاسر الى خصمه ، وعاد قاسم الذي نسيه الناس ، فأصبح موضع أملنا ورجائنا جميعا .

.

« دار حول مصطو دورة أو دورتين ، ورازه مصطو بنظراته فعرفه .

هنا قاطع أحد الحاضرين قائلا :

ـ الرجال تعرف بعضها البعض ..

قال أبو محمد :

ـ معلوم يا ابني معلوم ، الرجال تعرف بعضها البعض ، والنساء تعرف الرجال ، والرجال يعرفون النساء .. الناس لا يجهلون بعضهم البعض . النذل يعرف من معاملته ، والثرثار من أقواله ، والجبان من حركاته ، والرجل من كل شيء فيه :

من مشيته ، ونظرته ، وصوته ، ونخوتـه ، وكرمه ، ومن شرواله •• الرجولة تنقط من الشروال يا أولاد •

« خلاصته •• نعود الى قصتنا •• دار مصطو حول قاسم ، ودار قاسم حول مصطو ، ودق الطبل ، وانتشر الخبر في الحي ، فتجمعت النساء بالملايات على الاسطحة ، ونفرت عروق قاسم في وجهه وزنديه ، وانقلبت سحنته ، وأصبح مخيفا • تقول : نمر كاسر ؟ تقول : ذئب جائع ؟ تقول : مارد انشقت عنـه الارض ؟ قل ما شئت ، أما أنا فأذكر أنه كان أسمر ، طويلا ، ضامرا ، له عينان مذبوحتان ، وشوارب سود •• وكان خصمه مصطو مثل العمالقة ، أكتافه بعرض الباب ، ويده كالمدراة ، يعني رجل بكل معنى الكلمة •••

قال الفقش مقاطعا :

ــ رجل ، نعم ! ولكن مثل قاسم ؟•• لا ؟

فرفع أبو محمد الشاغوري يده محتجا :

ــ لا ، كان مصطو من الرجال المعدودين ، مثل قاسم وحبة ! لكن قاسـم نزل يا قاتل يا مقتول ، وضع روحـه على كفه ، وأمسك خصمه من خصره ، فأفلت منه ، وأمسكه بدوره من حزامه ، فقلنا :

ـ راح قاسم !

« دق الطبل بشدة ، يا أولاد الطبل يضرب عند التحام المتصارعين ، وينقر نقرا خفيفا عند افتراقهم ٠٠ لكن قاسم بدد ظنوننا ، ضرب رجليه بعيدا في الارض ، ووضع رأسه في صدر مصطو ، وظل يكبس حتى انقطع الحزام وفتل في الهواء ، ورجع الى خصمه ٠ دق الطبل بقوة أكثر ، وصحنا : عشت يا قاسم ، عشت يا أسمر ، هذا يومك يا راعي « الخضرة » ٠

« عاد قاسم الى الكر والفر ، وضرب كفيه ببعضهما ، ودار حول مصطو من جديد ، وعاد الطبل ينقر نقرا خفيفا خفيفا ٠٠ ثم أسرع قاسم في دورانه ، وأسرع مصطو وراءه ، وأسرع الطبل في الضرب ، وبدأت المصاولة من جديد : قاسم يمد يده ، وأصابعها متشنجة ، وقصده أن تطول خصر مصطو فقط ، ومصطو يفوت عليه الفرص ويعطيه كتفه ، ويحاول أن يمسكه من حزامه ، ونحن على نار ، وزغردات النساء تملأ الاسطحة والطبل يضرب : بم ٠٠ بم ٠٠ بم ٠

في مثل هذه الاوقات ينسى الناس حالهم ، ووقتهم ، وشغلهم ، وقد نسينا نحن أيضا ٠ لم نر الا ومصطو يمسك قاسم من كتفه ، ويجذبه ليأخذه على جنبه الايمن ، ويضربه بالارض ،

وقاسم يكبس رجليه في الارض ، ويمسك مصطو من فخذيه ، حتى تنغرز أصابعه في اللحم ..

« وهنا حدث ما لم أره في حياتي ، فقد شال قاسم خصمه بين يديه ، وبطرفة عين رفعه الى فوق ، وضربه بالارض فكسر ساقه شقفتين . صاح مصطو : « قتلتني يا قاسم » ! .

وضرب الطبل ضربته الاخيرة ، وزغردت النساء من جديد ، وركضنا الى قاسم نقبله ، ونحمله على الاكتاف . وبدأ طبلنا يضرب ، وسكت طبل مصطو وذهب جماعته مكسورين » .

سكت أبو محمد ..

ولكن القوم ظلوا يتحدثون بهذه الواقعة الى نهاية السهرة ، ثم قاموا الى بيوتهم ، وقام أبو محمد لينام ، وقبل أن يذهب نظر الى البندقية المعلقة على الجدار ، وداعبها بيده ، وانتصب ظهره المقوس ، وبرقت عيناه ، وفتح الباب على مصراعيه ، واتكأ على أحدهما ، وتنفس هواء الغوطة ملء رئتيه ، وراح ينظر الى أشجارها المنتصبة أمامه كجدار من رصاص ، نظرة طويلة طويلة ، وجمرة السنديان في جوفه ، تتوهج ، وتشعل فيه نار الذكريات .

ترى هل يعرف رجال الحي يوما أن الذي غلب مصطو ليس الا هو ... وأن قاسم المهروس شخص لا وجود له في هـذه الحياة ؟.

١٩٥٦

الفهـرس